هنري برجسون

المدخل الى الميتافيزيقا

ترجمة
د محمد علي ابو ريان
مستل من كتاب المترجم
تاريخ الفكر الفلسفي ـ الفلسفة الحديثة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ترجمـــة
المدخل إلى الميتافيزيقا
لبرجسون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المدخل إلى الميتافيزيقا

إذا قارن المرء بين التعريفات المختلفة للميتافيزيقا وتصورات المطلق، لاحظ أن الفلاسفة يتفقون ـ على الرغم مما بينهم من خلافات ظاهرية ـ على التمييز بين طريقتين تختلفان اختلافاً عميقاً فى معرفة شئ ما. ومضمون الأولى أن الإنسان يحوم حول هذا الشئ، بينما مضمون الثانية أنه ينفذ إلى داخله. وتخضع الأولى للموقف الذى يقفه المرء والرموز التى يستعملها فى التعبير، أما الثانية فهى لاترجع إلى أى موقف ولاتعتمد على أى رمز. وسيقال عن المعرفة الأولى إنها تقف عند «النسبى»، وعن الثانية إنها تبلغ «المطلق» حيثما تكون ممكنة.

ليكن مثلنا حركة شئ فى المكان. إننى أدركه إدراكاً حياً مختلفاً بحسب الموقف الثابت أو المتحرك الذى أتطلع إليه منه، وأنا أعبر عنه تعبيراً مختلفاً وفقاً لنظام المحاور والعلامات الذى أرجعه إليه، أى حسب الرموز التى أعبر بها عنه. وأنا أسميه «نسبياً» لهذا السبب المزدوج: وهو أنى أتخذ مكانى فى كلتى الحالتين خارج الشئ ذاته: فعندما أتحدث عن حركة مطلقة أنسب للمتحرك باطناً وما يشبه الحالات النفسيه. وبالإضافة إلى ذلك، فأنا أتعاطف مع هذه الحالات وأنفذ إليها بجهد الخيال ولن أشعر بنفس الشعور إزاء الشئ إذا كان متحركاً أو غير متحرك، أو إذا اتخذ حركة أو أخرى ولن يستند حينئذ ما أشعر به نحو الشئ، لا إلى الموقف الذى قد أقفه تجاهه مادمت داخل الشئ نفسه، ولا إلى الرموز التى قد أعبر بها عنه مادمت قد أقلعت عن كل تعبير للإستحواذ على الأصل وبالاختصار فلن يتم إدراك الحركة من الخارج أبداً، وبصفة ما من مكانى، ولكن من داخلها وفيها وفى ذاتها، وبهذا أستحوذ على شئ مطلق.

وليكن مثلنا الثانى شخصية من قصة تروى لى مغامراتها سيكون فى مقدرة القصصى أن يعدد سمات الشخصية ويجعل بطله يتكلم ويعمل بقدر ما يحلو له: ومع هذا فإن كل ذلك لن يساوى الشعور البسيط غير المنقسم الذى أشعر به إذا تواجدت لحظة مع الشخصية ذاتها وحينئذ تبدو لى الأفعال والحركات والألفاظ كأنها تتدفق تدفقاً طبيعياً من المنبع. فلن تكون هذه أعراضاً تنضاف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى الفكرة التى كونتها لنفسى عن الشخصية لتزيد باستمرار من ثرائها دون أن تبلغ بها حد الكمال، إذ تقدم لى الشخصية حينئذ دفعة واحدة فى صورة متكاملة، وأما آلاف الأعراض التى تظهر الشخصية فبدلاً من أن تنضاف إلى فكرتى عنها وتزيدها ثراءً، ستبدو لى حينئذ على العكس من ذلك منفصلة عنها دون أن تقضى مع هذا على جوهرها أو تُضعفه. إن كل مايروى لى عن الشخصية يمدنى بوجهات نظر متعددة عنها. وكذلك جميع السمات التى تصفها لى وتقصر عن أن تمدنى بمعرفة عنها، إلا باللجوء إلى عدد كبير من المقارنات مع شخصيات أو أشياء سبقت لى معرفتها، إنما تعتبر كلها علامات نعبر بها عن الشخصية تعبيراً يتفاوت فى رمزيته: ومن ثمة فإن الرموز ووجهات النظر إنما تجعلنى أقف خارج الشخصية بحيث لاتمدنى منها إلا بما هو مشترك بينها وبين غيرها من الشخصيات دون أن تتعلق بها ذاتياً، ولكن حقيقتها الخاصة التى تنطوى على ماهيتها لايمكن أن أدركها من خارج إذ هى أمر داخلى من حيث تعريفه نفسه، كما لايمكن التعبير عنه برموز، إذ أنه لايخضع للقياس بشئ آخر، وعلى هذا فإن عمليات الوصف والتأريخ والتحليل إنما تتركنى هنا فى مجال النسبى. ويظل التواجد مع الشخصية وحده هو الذى يمنحنى المطلق.

ولايرادف «المطلق» «الكمال» إلا بهذا المعنى، وبهذا المعنى وحده فلن تعادل جميع صور مدينة تلتقط من جميع المواقع التى يمكن النظر إليها منها مهما أكمل بعضها البعض الآخر، هذه النسخة المرسومة رسماً بارزاً، وهى المدينة كما يراها المرء حينما يقوم بنزهته. وكذلك فإن جميع ترجمات قصيدة ما إلى كل ما يمكن أن تترجم إليه من لغات مهما أضافت من فروق طفيفة إلى فروق أخرى وصحح بعضها البعض الآخر بضرب من التنقيح المتبادل محاولة أن تقدم لى صورة تزداد اقتراباً من مضمون القصيدة التى تترجمها، فإن هذه الترجمات رغم هذا لن تفلح قط فى إعطائنا المعنى الباطن للقصيدة الأصلية، وتبقى دائماً الصورة التى نحصل عليها من وجهة نظر خاصة، والترجمة التى تتم بواسطة رموز معينة نافعة بالنسبة للشئ الذى انصب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليه إدراكنا أو الذى نحاول الرموز التعبير عنه. ولكن المطلق كامل من حيث أنه ما هو بصورة كاملة.

ولاريب أن الناس لهذا السبب نفسه كثيراً ما ماثلوا، بين «المطلق» «واللانهائى» فإذا أنا أردت أن أنقل إلى من يجهل اللغة اليونانية الشعور البسيط الذى يتركه فى نفسى بيت شعر لهوميروس فسألو ترجمة البيت، ثم أعلق على ترجمتى ثم أبسط تعليقى. وكلما انتقلت من تفسير إلى تفسير آخر أكثر إيضاحاً فإننى أقترب أكثر فأكثر مما أريد التعبير عنه، ولكننى لن أبلغه قط. وأنت عندما ترفع ذراعك تقوم بحركة تدركها من الداخل إدراكاً بسيطاً، ولكن ذراعك من الخارج ـ بالنسبة لى أنا الذى أنظر إليه ـ يمر بنقطة ثم بنقطة أخرى،ويتخلل هاتين النقطتين نقط أخرى أيضا، بحيث إذا أخذت فى العد استمرت العملية بدون نهاية،فالمطلق إذن،إذا نفذنا بإدراكنا إلى داخله بدا لنا شيئاً بسيطاً،ولكن إذا أدركناه من الخارج أى بالنسبة إلى شئ آخر، أصبح بالنسبة للعلامات التى تعبر عنه كقطعة النقد الذهبية التى سوف لاينتهى المرء أبداً من تقدير قيمتها بالنقود الصغيرة. ولكن كل ما يقبل فى آن واحد إدراكاً لاينقسم،وعداً لاينتهى يكون من حيث التعريف أمراً لامتناهياً.

وينتج عن هذا أنه لايمكن أن نستحوذ على المطلق إلا من خلال «حدس» ، بينما يرجع كل شئ آخر إلى (التحليل) . ونطلق هنا لفظ الحدس على التعاطف الذى ينتقل بالمرء إلى داخل شئ ما للتطابق مع ماينطوى عليه من صفة فريدة تستعصى لذلك على التعبير،أما التحليل، فهو ـ على العكس من ذلك ـ العملية التى ترد الشئ إلى عناصر معروفة من قبل ـ أى مشتركة بين هذا الشئ وغيره من الأشياء، فقوام التحليل إذن التعبير عن شئ بدلالة شئ آخر غيره، ومن ثم فإن كل تحليل إنما يُعد ترجمة وعرضاً مبسوطاً بواسطة الرموز وتصويراً يؤخذ من مواقف متتابعة،يسجل المرء منها نفس القدر من نقط التماس بين الشئ الجديد الذى يدرسه وغيره من الأشياء التى يظن المرء أنه على معرفة سابقة بها. والتحليل ـ بدافع من اتجاهه الأزلى الجامح لكى يحيط بالموضوع الذى فرض عليه أن يدور حوله ـ يضاعف المواقف بلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نهاية ليكمل الصورة التى تستمر دائماً ناقصة، وينوع الرموز بلا انقطاع ليكمل الترجمة التى تظل مع هذا ناقصة فالتحليل يستمر إذن إلى مالانهاية، بينما الحدس ـ إذا ما كان ممكناً ـ عمل بسيط.

إذا سلمنا بهذا فسنرى بدون مشقة أن الوظيفة الجارية للعلم الوضعى هى التحليل ـ فهو يمارس عمله قبل كل شئ بواسطة رموز، وحتى علوم الحياة، وهى أكثر علوم الطبيعة حسية تقتصر على الصورة المرئية للكائنات الحية وأعضائها وعناصرها التشريحية. فهى تقارن الأشكال بعضها ببعض، وترد أكثرها تركيباً إلى ماهو أكثر بساطة. وأخيراً فهى تدرس سير الحياة فيما تنطوى عليه ـ من رمز مرئى إذا صح هذا التعبير فإذا ما كانت هناك وسيلة للحصول على حقيقة بصورة مطلقة بدلاً من معرفتها مواقف بالنسبة لها وللحصول على حدس بها بدلا من تحليلها، وبالاختصار إذا وجدت وسيلة لإدراكها بعيدا عن كل تعبير أو ترجمة أو تصوير رمزى فالميتافيزيقا هى هذا بعينه «فالميتافيزيقا إذن هى العلم الذى يزعم أنه يستغنى عن الرموز».

* * *

هناك إذن على الأقل حقيقة واحدة ندركها تماماً من الداخل بالحدس، وليس بالتحليل البسيط، وهذه الحقيقة هى شخصنا نفسه فى إنسيابه عبر الزمن: إنها ذاتنا التى تدوم. فقد لانستطيع أن نتعاطف عقلياً أو بالأحرى روحياً مع أى شئ آخر، ولكننا بلاريب نتعاطف مع ذواتنا.

عندما أجيل نظرة شعورى الباطنى حول ذاتى، وقد افترضت أنها عديمة النشاط، فإنى ألمح جميع الإدراكات الحسية التى تصل إليها من العالم المادى كما لوكانت كتلة صماء على سطح ذاتى، وهذه الإدراكات الحسية واضحة متميز بعضها عن البعض الآخر متراصة ـ أو قابلة لأن تكون متراصة ـ بعضها إلى جوار الآخر، وهى تتجه إلى التجمع فى (أشياء). وألمح بعد ذلك ذكريات تلتحم بهذه الإدراكات الحسية إلتحاماً متفاوتاً وتساعد على تفسيرها. وهذه الذكريات تبدو كما لوكانت منفصلة عن أعماق ذاتى منجذبة إلى السطح بفعل الإدراكات الحسية التى تشبهها. وتضاف هذه الذكريات إلى ذاتى دون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن تكون هى هذه الذات تماماً. وأخيرا، فإنى أحس بميول تظهر، وبعادات حركية، وبمجموعة من الأعمال المضمرة التى ترتبط ارتباطاً يتفاوت فى قوته بهذه الإدراكات الحسية وهذه الذكريات. وجميع هذه العناصر ذات الصور المحددة المعالم تحديداً تاماً تبدو متمايزة عنى تمايزاً أشد بقدر ما يتمايز بعضها عن البعض الآخر. وهى فى اتجاهها من الداخل إلى الخارج يتكون منها عند تجمعها سطح كرة يأخذ فى الإتساع إلى أن يتلاشى فى العالم الخارجى. ولكنى إذا ما استجمعت أطراف نفسى متجهاً نحو مركز شعورى، وإذا ما بحثت فى أعماق ذاتى عمَّا هو أكثر تماثلاً وأشد استمراراً وما هو فى ذاتى أشد دواماً فإنى أجد شيئاً يخالف ذلك تمام الاختلاف.

فتحت هذه البلورات المحكمة القطع، وتحت هذا التجمد السطحى، ينساب تدفق مستمر لايمكن مضاهاته بشئ مما وقع عليه بصرى. إنه تعاقب حالات تنبئ كل منها عن الحالة التى تتلوها كما تحتوى على سابقتها. وحقيقة الأمر أن هذه الحالات لا تؤلف حالات متكثرة إلا بعد ما أكون قد تجاوزتها وعدت إلى الوراء لكى ألاحظ خط سيرها، بينما كانت ـ وأنا أشعر بها ـ على درجة بالغة القوة من التنظيم العضوى تغزوها من أبعد الأعماق حياة مشتركة لدرجة أنه لم يكن فى استطاعتى أن أقول أين تنتهى أية حالة منها وأين تبدأ الأخرى. وفى الواقع لاتبدأ أية واحدة منها ولا تنتهى، ولكن يمتد بعضها متداخلاً فى البعض الآخر.

إنها ـ إذا شئنا ـ كدوران أسطوانة، إذ أنه ليس هناك كائن حى لايشعر بأنه يصل رويداً رويداً فى دوره إلى منتهى المطاف. وليست الحياة فى حقيقة أمرها سوى مسيرة نحو الشيخوخة، ولكنها مع هذا ـ فى نفس الوقت ـ دوران مستمر يشبه التفاف خيط على لفيفة غزل، ذلك لأن ماضينا يتبعنا ويتضخم بلا انقطاع مما يجمعه من الحاضر أثناء مسيرته. وليس الشعور فى حقيقة أمره سوى ذاكرة.

وحقيقة القول هى أن ذلك ليس لفاً أو دوراناً، إذ أن هاتين الصورتين تثيران فى الذهن صور خطوط أو أسطح، تكون أجزاؤها متجانسة وقابلة لأن ينضاف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعضها فوق البعض الآخر. ولكن لاتوجد لحظتان متماثلتان لدى أى كائن شاعر. فخذ مثلا العاطفة الأكثر بساطة وافرض أنها مستمرة واجعلها تستغرق الشخصية كلها، فإن الشعور الذى سيصاحب هذه العاطفة لن يظل مشابهاً لنفسه خلال لحظتين متعاقبتين، لأن اللحظة التالية تتضمن دائماً، علاوة على اللحظة السابقة، الذكرى التى تركتها هذه اللحظة الأولى، فالشعور الذى ينطوى على لحظتين متماثلتين يكون شعوراً بدون ذاكرة، وإذن فهو يتلاشى ويتولد من جديد بلا انقطاع. وهل هناك من صورة أخرى يمكن أن نصور بها عدم الشعور غير هذه.؟

يتعين إذن أن نستحضر صورة طيف يشتمل على ألف من الألوان المختلفة التى تتدرج فيما بينها تدرجاً غير محسوس يجعلنا ننتقل من أحدها إلى الآخر. إن تيار الشعور الذى يجتاز هذا الطيف، وهو يصطبغ طوراً بعد آخر بكل من هذه الألوان المتدرجة، سيحمل تغيرات متدرجة يشير كل منها إلى مايليه وينطوى فى داخله على صورة مختصرة لكل ما سبقه. وستظل أيضاً الدرجات المتتالية للطيف دائماً بعضها خارجية بالنسبة إلى البعض الآخر. إنها تكون متراصة تشغل مكاناً، وعلى العكس من ذلك فإن ماهو ديمومة خالصة يستبعد أية فكرة عن التراص والتخارج المتبادل والإمتداد.

لنتخيل إذن من باب أولى قطعة من المطاط غاية فى الصغر مضغوطة ـ إذا كان هذا ممكناً ـ فى نقطة رياضية، ولنمطها تدريجيا بحيث نخرج منها خطاً يطول باستمرار ولنثبت انتباهنا لا على الخط من حيث هو خط، ولكن على الفعل الذى يرسمه، ولنعتبر أن هذا الفعل على الرغم من ديمومته غير منقسم إذا إفترضنا أنه يتم دون توقف: وأننا إذا أقحمنا عليه توقفاً فإننا سنقوم بصدده بفعلين بدلاً من فعل واحد، وأن كلاً من هذين الفعلين سيكون حينئذ غير المنقسم الذى نتحدث عنه، وأن الفعل المحرك نفسه ليس هو الذى يكون منقسماً أبداً، ولكن الخط الثابت الذى يتخلف عنه كأثر فى المكان هو الذى يكون منقسماً ولنتخلص فى النهاية من المكان الذى يحمل الحركة فلا نهتم إلا بالحركة نفسها، أى فعل التوتر والامتداد، أى الحركة الخالصة، وسنحصل هذه المرة على صورة أكثر صدقاً لنمونا خلال الديمومة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومع ذلك ستكون هذه الصورة أيضاً ناقصة، كما ستكون من جهة أخرى كل مقارنة غير كافية، لأن مسير ديمومتنا يشبه من بعض نواحيه وحدة حركة تتقدم، ويشبه من ناحية أخرى تعدد حالات تنبسط، ولأنه لايمكن لأى استعارة أن تعبر عن أحد الوجهين دون التضحية بالآخر. فإذا ما أنا استحضرت صورة طيف له ألف لون ولون فانه سيكون أمامى شئ تام التكوين بينما الديمومة فى حالة تكون مستمر. وإذا كنت أفكر فى قطعة مطاط تمتد وزمبرك ينبسط وينقبض غاب عن ذهنى ثراء الألوان وهو السمة المميزة للديمومة التى أحياها، فلم أعد أرى سوى الحركة البسيطة التى ينتقل بها الشعور من لون إلى لون آخر. إن الحياة الداخلية كل ذلك فى آن واحد، إنها تنوع فى الكيفيات واستمرار فى التقدم ووحدة الإتجاه. والصور عاجزة عن تمثيلها.

ولكن يمكن أيضاً تمثيلها بدرجة أقل وضوحاً وذلك بواسطة التصورات، أى بواسطة أفكار مجردة أو عامة أو بسيطة، والأمر الذى لاشك فيه. أنه مامن صورة يمكن أن تعبر تمام التعبير عن الشعور الأصيل الذى لدىّ عن تدفق ذاتى. ولكنه لاضرورة أيضاً لأن أحاول التعبير عنه. فذلك الذى يعجز عن أن يستوعب بنفسه الحدس بالديمومة المكونة لوجوده فإن شيئاً ما لن يمنحه ذلك الحدس أبداً، وليست التصورات والصور أقدر على ذلك.

ويتعين أن يكون الموضوع الوحيد للفيلسوف هنا هو أن يبدأ عملاً معيناً تحاول عادات العقل الأكثر نفعاً فى الحياة أن تعوقه عند معظم الناس. ولكن للصورة-على الأقل-هذه الميزة، وهى أنها تبقينا فى مجال المحسوس، ولايمكن أن تحل أيه صورة محل حدس الديمومة. ولكن كثيراً من الصور المختلفة المستمدة من أنواع شديدة الاختلاف من الأشياء يمكنها بتقابل فعلها أن توجه الشعور نحو النقطة المضبوطة حيث يوجد حدس معين يمكن إدراكه.

وباختيارنا للصور الأكثر تبايناً بقدر الإمكان سنحول بين أى منها وبين أن تحل محل الحدس الذى من وظيفتها أن تستدعيه، إذ أن ما ينافسها من الصور سيطردها فوراً. وحينما نجعل هذه الصور تتطلب جميعاً من ذهننا ـ على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرغم من الإختلاف فى مظهرها ـ نفس النوع من الإنتباه ونفس الدرجة من التوتر ـ على نحو ما ـ سيعتاد الشعور رويداً رويداً على وضع خاص تماماً ومحدد كل التحديد، هو على وجه الدقة الوضع الذى يتعين على الشعور اتخاذه لكى يتجلى لذاته بدون حجاب، ولكن يجب أيضاً أن يذعن لهذا المجهود،إذ أنه لولا ذلك لما اطلع على أى شئ،بل لوُضع بكل بساطة فى الموقف الذى يجب أن يقفه لكى يبذل المجهود المطلوب،ويصل بذاته إلى الحدس. وعلى العكس من ذلك فإن عيب التصورات الأكثر بساطة فى مثل هذا الأمر هو أنها تكون فى الحقيقة رموزاً تحل محل الشئ الذى ترمز إليه، ولاتتطلب منا أى مجهود. وإذا نظرنا فيها عن كثب فسنرى أن كلاً منها لايحتفظ من الشئ إلا بما هو مشترك بين هذا الشئ والأشياء الأخرى. وسنرى أن كلاً منها يعبر أكثر مما تفعله الصورة عن «مقارنة» بين الشئ وما يشبهه من أشياء. ولكن لما كانت المقارنة قد أظهرت مشابهة،ولما كانت المشابهة خاصية من خصائص الشئ،ولما كانت الخاصية تبدو تماماً «جزءاً» من الشئ الذى يحتوى عليها،فإننا نُقنع أنفسنا بدون مشقة أننا إذا ما وضعنا تصورات إلى جوار تصورات نعيد تركيب الشئ بجميع أجزائه، وأننا نحصل بذلك كما يُقال على معادل عقلى له. ونحن نظن هكذا أننا نؤلف صورة أمينة للديمومة إذا أضفنا تصورات الوحدة،والتعداد،والإستمرار،والقابلية للقسمة النهائية أو غير النهائية ... إلخ. وهنا يوجد الوهم على وجه التحديد، وهنا أيضاً يكمن الخطر. فبقدر ما يمكن للأفكار المجردة أن تُسدى خدمة للتحليل أى لدراسة علمية للشئ فى صلاته مع الأشياء الأخرى جميعاً بقدر ما تكون عاجزة عن أن تحل محل الحدس،أى التحقق الميتافيزيقى للشئ فيما ينطوى عليه من عنصر جوهرى خاص به.

فمن ناحية لن تقدم لنا هذه التصورات فى الواقع ـ إذا صُفَّت بعضها إلى جانب بعض ـ إلا تأليفاً جديداً صناعياً للشئ الذى لايمكنها إلا أن ترمز لبعض مظاهره العامة التى تكون لاشخصية على نحو ما. إنه إذن من العبث أن نظن أننا نستطيع بواسطتها أن نستحوذ على واقع تقتصر على أن تقدم لنا ظلاً له. ولكن هناك من جهة أخرى إلى جانب الوهم خطر كبير جداً،إذ أن التصور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعمم فى نفس الوقت الذى يجرد فيه،فالتصور لايمكنه أن يرمز إلى خاصية معينة إلا إذا جعلها مشتركة بين أشياء لاحصر لها،فهو إذن يُعدِّل من شكلها تعديلا بدرجة متفاوتة، وذلك بما يمنحها من أبعاد. والخاصية إذا ما أعيدت إلى الموضوع الميتافيزيقى المستحوذ عليها تتطابق معه وتتشكل على الأقل وفقاً له، وتتخذ نفس معالمه. ولكن هذه الخاصية إذا ما انتزعت من الموضوع الميتافيزيقى، وعبِّر عنها بتصورات فإنها تتسع اتساعا لاحد له وتتخطى الموضوع مادام يجب من الآن فصاعداً أن تشتمل عليه مع موضوعات أخرى. وترسم إذن التصورات المختلفة التى نكونها عن خواص أحد الأشياء حول هذا الشئ عدداً مساوياً فى الدوائر الأكثر اتساعاً، ولاتنطبق أى منها على هذه الخاصية تماماً. ومع هذا فإنه فى الشئ نفسه تتطابق الخواص مع هذا الشئ، وتتطابق تبعاً لذلك فيما بينها. وسنجد أنفسنا إذن مضطرين للبحث عن حيلة لإعادة التطابق. سنأخذ واحداً أيّاً كان من هذه التصورات ونحاول به أن نلحق بالتصورات الأخرى. ولكن وفقاً لابتدائنا من هذا التصور أو ذاك لن يتم الإلتقاء بنفس الطريقة. فوفقاً لابتدائنا مثلاً من الوحدة أو من الكثرة سندرك بطريقة مختلفة الوحدة المتكثرة للديمومة، وسيرجع كل شئ إلى الوزن الذى نلحقه بهذا أو ذاك من التصورات، وسيكون هذا الوزن تعسفياً دائماً، إذ أن التصور عندما يفصل عن الشئ يخلو من الوزن لأنه ليس إلا ظلاً لجسم. وهكذا ينشأ عدد من النظم المختلفة بقدر ما يكون هناك من وجهات نظر خارجية عن الواقع الذى نختبره،ومن دوائر أكثر اتساعاً يندرج تحتها. فليس عيب التصورات البسيطة وحدها إذن أنها تقسم الوحدة المحسوسة للشئ فى قدر كبير من التعبيرات الرمزية، فهى أيضاً تقسم الفلسفة إلى مدارس مختلفة تحتفظ كل منها بمكانها وتختار لنفسها أحجار اللعب وتبدأ مع المدارس الأخرى دوراً لانهاية له فإما أن تكون الميتافيزيقا ليست شيئاً آخر سوى لعبة الأفكار هذه، وأما إذا كانت عملاً جاداً للعقل يجب أن تتسامى على التصورات لتبلغ الحدس. والحقيقة أنه لاغنى لها عن التصورات،إذ أن جميع العلوم الأخرى تمارس عملها عادة بواسطة التصورات، ولايمكن للميتافيزيقا أن تستغنى عن العلوم الأخرى. ولكنها لاتكون فعلا على حقيقتها إلا عندما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تتجاوز التصور، أو على الأقل عندما تتحرر من التصورات الصلبة أو الجاهزة لتنشئ تصورات تختلف اختلافاً تاماً عن تلك التى نتداولها عادة، وأعنى بذلك صوراً مرنة، متحركة تكاد تبلغ حد السيولة، وتكون مستعدة دائماً لأن تتشكل بحسب قوالب الحدس المرنة. وسنعود فيما بعد إلى هذه النقطة الهامة. ولنكتف الآن بما بيناه من أن ديمومتنا يمكن أن تعرض علينا مباشرة فى حدس، وأنه يمكن أن يوحى لنا بها بطريقة غير مباشرة بوساطة صور، ولكنه لايمكن لهذه الديمومة ـ إذا أبقينا لكلمة «تصور» معناها الخاص ـ أن تُستوعب فى تمثل تصورى.

ولنحاول لحظة أن نجعل من ديمومتنا كثرة ما، ويجب حينئذ أن نضيف إلى هذا أن حدود هذه الكثرة بدلاً من أن تتمايز كما هو الحال فى حدود أية كثرة أخرى فإنها يطغى بعضها على البعض الآخر. وإنه يمكننا بلاشك بمجهود الخيال أن نجمّد الديمومة بعد تمام تدفقها وأن نقسمها إلى أجزاء تتراص، وأن نعد جميع الأجزاء، ولكن هذه العملية تتم من خلال الذكرى الثابتة للديمومة، وعلى مجرى الأثر الساكن الذى تخلفه حركة الديمومة وراءها، وليس على الديمومة نفسها. فلنعترف إذن أنه إذا ما كانت هاهنا كثرة، فإن هذه الكثرة لن تشبه أى كثرة أخرى. فهل نقول حينئذ أن للديمومة وحدة؟ لاشك أن استمراراً ما للعناصر التى يتداخل بعضها فى البعض الآخر إنما يُشارك على قدر متساو فى الوحدة والكثرة، ولكن هذه الوحدة، المتحركة المتغيرة المتلونة الحية، لاتشبه فى شئ ما الوحدة المجردة الثابتة الخاوية التى يحدد معالمها تصور الوحدة الخالصة. فهل نستنتج من ذلك أنه يجب أن نعرف الديمومة بالوحدة والكثرة فى آن واحد؟ إلا أنه من الغريب أننى مهما قلبت التصورين وجمعت بينهما بطرق مختلفة وأجريت عليهما أدق عمليات الكيمياء العقلية فلن أحصل قط على أى شئ يشبه الحدس البسيط الذى يكون لدىّ عن الديمومة، فى حين أننى إذا ما عدت فاستقررت داخل الديمومة بمجهود من الحدس أدركت على الفور كيف تكون وحدة كثرة أموراً أخرى كثيرة أيضاً. وإذن كانت هذه التصورات المختلفة وجهات نظر مختلفة وخارجية وكثيرة عن الديمومة. وسواء كانت هذه التصورات منفصلة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو مجتمعة فإنها لن تسمح لنا بأن ننفذ إلى صميم الديمومة.

ولكننا مع ذلك ننفذ إلى باطنها، ولايمكن أن يتم ذلك إلا عن طريق الحدس، وبهذا المعنى تصبح المعرفة الداخلية المطلقة لديمومة «الأنا» بواسطة «الأنا» ذاتها ممكنة. ولكن إذا ماطالبت الميتافيزيقا هنا بحدس، وأمكنها الحصول عليه فهذا لايقلل من حاجة العلم إلى التحليل. وسينشأ هنا الجدل بين المدارس، والتعارض بين المذاهب كنتيجة للخلط بين دور التحليل ودور الحدس.

وعلم النفس فى الواقع يستخدم التحليل، مثله فى ذلك مثل العلوم الأخرى، فهو يحلل الأنا التى أعطيت له أول الأمر فى حدس بسيط، إلى إحساسات ومشاعر وتصورات الخ ... يُدرس كلاً منها على حدة. ومن ثمة فهو يضع مكان الذات مجموعة من العناصر هى الوقائع النفسية. ولكنه هل هذه العناصر أجزاء؟ هنا تبرز أمامنا المشكلة كاملة. وتجنب البحث فى هذه المشكلة كثيراً ما أدى إلى عرض الشخصية الإنسانية على صورة لاتقبل الحل.

ولامراء فى أن كل حالة نفسية، لمجرد أنهـا تنسب إلى شخص، تعكس شخصيته فى جملتها. فليس هناك من شعور، مهما كان بسيطاً، لايتضمن بالقوة ماضى الموجود الذى يشعر به وحاضره ويمكن له أن ينفصل عن هذا الموجود، ويكون «حالة قائمة بذاتها» إلا بواسطة جهد من التجريد أو التحليل. ولكن بدون فعل التجريد أو التحليل هذا سيتعذر تطور علم النفس وتقدمه، وهذا أمر لا يقلُّ عن سابقه فى أنه ليس مثار أى نزاع، ولكن م تتكون العملية التى يفصل بواسطتها عالم النفس حالة سيكولوجية لكى يضمها فى صورة تتفاوت فى درجة استقلالها؟ إنه يبدأ بالتغاضى عن التلوين الخاص للشخص، وهو أمر لايمكن التعبير عنه بألفاظ معروفة مشتركة. ثم هو يجتهد ليعزل فى الشخص الذى بسطه على هذا النحو هذا المظهر أو ذاك مما يصلح لدراسة تثير الإهتمام. فإذا ما تعلق الأمر مثلاً بالميل، ترك جانباً اللون الذى لايمكن التعبير عنه والذى يصطبغ به ويجعل من ميلى شيئاً آخر غير ميلك، ثم يعكف على الحركة التى تتجه شخصيتنا عن طريقها نحو موضوع معين منفصل، سيعزل هذا الموقف وسينشئ واقعة مستقلة من هذا المظهر الخاص للشخص وهو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجهه نظر حول حركة الحياة الداخلية، وهو أيضاً تخطيط إجمالى للميل المحسوس. وفى هذا عمل مشابه لعمل فنان ـ أثناء مروره بباريس ـ فهو يأخذ مثلاً صورة أولية لبرج من كنيسة نوتردام، وهذا البرج مرتبط بالأرض ارتباطاً وثيقاً. وكذلك يرتبط بما يحيط به وبباريس كلها الخ ... فيتعين البدء بفصله عما يحيط به، فلن يسجل الرسام من المجموع إلا مظهراً معيناً وهو هذا البرج من نوتردام. والآن فإن البرج يتكون فى الواقع من حجارة يخلع تجمعها الخاص على البرج شكله، ولكن الرسام لايهتم بالحجارة، وهو لايسجل غير خطوط ظل البرج. فهو يضع إذن محل النظام الواقعى والداخلى للشئ تركيباً جديداً خارجياً وتخطيطاً فحسب، بحيث يستجيب رسمه جملة لوجهة نظر معينة حول الشئ والاختيار لأسلوب معين من التعبير. والأمر مشابه لذلك تماماً فيما يختص بالعملية التى يستخرج بها عالم النفس حالة نفسية من الشخص جملة. فهذه الحالة النفسية المعزولة ما هى إلا رسم أولى وبداية لتأليف جديد مصطنع، إنها الكل منظور إليه من خلال مظهر معين أولى كان مثار اهتمام خاص وعنى بتسجيله. وليست هذه الحالة جزءاً ولكنها عنصر لم يتم الحصول عليه بالتجزئة ولكن بواسطة التحليل.

والآن. سيسجل الزائر الغريب بلاشك تحت كل الرسوم الأولية التى أخذت لباريس كلمة: «باريس» بصفة تذكار لها. ولما كان قد شاهد باريس بالفعل فسيمكنه نزولاً من الحدس الأصلى للصورة الكلية لها أن يحدد فيها مواقع رسومه الأولية، وأن يربط هكذا بين بعضها والبعض الآخر. ولكن لن تتاح له أيه وسيلة للقيام بالعملية العكسية: فمن المستحيل حتى باستخدام عدد لاحصر له من الصور الأولية، مهما بلغت من الدقة وحتى باستخدام كلمة «باريس»التى تشير إلى ضرورة الربط بين هذه الصور ، من المستحيل أن يصعد المرء من هذه الصور الأولية إلى حدس لم يسبق له إكتسابه، وأن يتمثل الشعور بباريس إذا لم يكن قد شاهدها،ذلك أن المرء لايواجه هنا أجزاء للكل،ولكنه يواجه تسجيلات اقتطعت من جملة الشئ. ولنتاول مثالاً يكون أشد واقعًا، فنختار حالة يكون فيها التسجيل أكثر اكتمالاً فى رمزيته: ولنفرض أنه تُعرض علىّ الحروف التى تدخل فى تكوين قصيدة أجهلها،وقد مُزجت كيفما اتفق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإذا ما كانت الحروف أجزاء من القصيدة فإننى استطيع محاولة إعادة تركيب القصيدة بواسطتها بعد إجراء ترتيبات مختلفة، كما يفعل الطفل بالمكعبات التى عليها رسوم ويكون منها صورة. ولكننى لن أفكر فى ذلك لحظة واحدة. ذلك لأن الحروف ليست أجزاء مركبة ولكنها تعبيرات جزئية، وهو أمر مختلف كل الإختلاف. ولهذا السبب، فإننى إذا كنت أعرف القصيدة، أضع على الفور كل حرف من الحروف في المكان الذى يناسبه وأربط بينها دون صعوبة فى خط مستمر. فى حين أن العملية العكسية عملية مستحيلة، وحتى حين أزعم أننى أحاول القيام بهذه العملية العكسية، وحتى عندما أضع الحروف طرفاً إلى طرف، فإننى أبدأ بتصور معنى محتمل. إننى أمنح نفسى إذن حدساً، وأنا أحاول أن أهبط من هذا الحدس إلى الرموز الأولية التى تعيد تأليف التعبير عنه، إن فكرة إعادة تركيب الشئ بواسطة عمليات تستخدم عناصر رمزية وحدها تنطوى على بطلان لايتطرق إلى عقل أى شخص إذا ما وضعنا فى حسابنا أننا بصدد أجزاء الشئ ولكننا ـ على نحو ما ـ بصدد أجزاء الرمز.

غير أن المحاولة التى يحاول بعض الفلاسفة أن يعيدوا بها تركيب الشخص بواسطة حالات نفسية تعتبر عملية من هذا القبيل، سواء اقتصروا على هذه الحالات نفسها أو أضافوا خيطاً الغرض منه أن يربط بين هذه الحالات. إن التجريبيين والعقليين ضحية هنا لنفس الوهم، فكل منهم يعتبر التسجيلات الجزئية أجزاء حقيقية ومن ثم فهم يخلطون بين وجهة نظر التحليل ووجهة نظر الحدس أى بين العلم والميتافيزيقا.

يقول الأولون بحق: إن التحليل النفسى لن يكشف فى الشخص عن شئ أكثر من الحالات النفسية.

وهذه هى فى الواقع وظيفة التحليل، بل وهذا هو نفس تعريفه، وليس لعالم النفس من عمل إلا أن يحلل الشخص، أى أن يسجل حالاته، وهو سيضع على أكثر تقدير العنوان «أنا» على هذه الحالات قائلا إنها «حالات للأنا» كما يكتب المصور كلمة «باريس» على كل صوره الأولية. فليست «الأنا»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى مجال عمل عالم النفس ـ والذى يتحتم عليه أن يمارس عمله فيه ـ إلا علامة تذكر بالحدس الأولى (الذى يبدو مبهماً للغاية على أيه حال) ذلك الحدس الذى أمد عالم النفس بموضوعه. إن «الأنا» هنا ليست إلا كلمة، والخطأ الكبير يكمن فى الإعتقاد بأنه يمكن العثور على شئ ما خلف هذه الكلمة مع البقاء فى نفس المجال. ومن هذا القبيل كان خطأ هؤلاء الفلاسفة الذين عجزوا عن الإكتفاء بأن يكونوا علماء نفس فى ميدان علم النفس مثل تين وستيوارت مل، فهما مع أنهما من علماء النفس من حيث المنهج الذى يستخدمانه إلا أنهما قد ظلا ميتافيزيقيين من حيث الموضوع الذى يستهدفانه. فهما يريدان حدساً ويتبعان أسلوباً غريباً متناقضاً حينما يطلبان هذا الحدس عن طريق التحليل الذى هو فى حقيقة أمره نفى للحدس. إنهما يبحثان عن «الأنا» ويزعمان أنهما سيجدانها فى الحالات النفسية فى حين أنه لم يمكن الإستحواز على هذه الحالات النفسية المتنوعة إلا بالخروج من «الأنا» للحصول ـ من الشخص ـ على سلسلة من الصور الأولية والتسجيلات والصور التى تتفاوت فى بساطة خطوطها ورمزيتها. وبناء على هذا فإنهما مهما رصا الحالات النفسية بعضها إلى جوار البعض الآخر، وأكثرا من نقط التماس فيما بينها، وكشفا عما بينها من فجوات، فإن «الأنا» تظل بعيدة عن متناولهما بحيث ينتهى بهما الأمر إلى ألا يجدا فيها إلا شبحاً لاقيمة له. ومثل هذا أن ينكر المرء أن للإليـاذة معنى، لأنه بحث بدون جدوى عن هذا المعنى بين الحروف التى تكونها.

وإذن فقد نشأت التجريبية الحسية، فى الفلسفة هنا نتيجة للخلط بين وجهة نظر الحدس ووجهة نظر التحليل، وقوامها أن يبحث المرء عن الأصل فى ترجمته حيث لايمكن حتماً أن يوجد، وأن ينكر الأصل بحجة أننا لانجده فى الترجمة وهى تنتهى بالضرورة إلى ضرب من النفى، ولكننا إذا نظرنا فيها عن كثب لاحظنا أن ضروب النفى هذه تعنى بكل البساطة أن التحليل ليس هو الحدس، وهذا الأمر هو الجلاء بعينه.

فالعلم ينتقل مباشرة من الحدس الأصلى ـ والمبهم على نحو ما، والذى يمد العلم بموضوعه ـ إلى التحليل الذى يضاعف إلى مالانهاية وجهات النظر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حول هذا الموضوع. وسرعان ما ينتهى به الأمر إلى الاعتقاد بأنه فى الإمكان إعادة تركيب الشئ عن طريق الجمع بين مختلف وجهات النظر المتعلقة به. فهل من الغريب أن يرى هذا الموضوع وقد استعصى عليه دائماً الإمساك به، كالطفل الذى يريد أن يصنع لنفسه لعبة ثابتة بالظلال التى ترتسم أشباحها على الحائط؟

ولكن المذهب العقلى ضحية نفس الوهم، وهو يبدأ من نفس الخلط الذى وقع فيه المذهب التجريبى الحسى، ويظل مثله عاجزاً نفس العجز عن الإحاطة بالشخصية. فمثله مثل التجريبية الحسية يعتبر الحالات النفسية كما لو كانت أجزاء مقتطعة من «الأنا» التى تجمع بينها، وهو أيضاً كالمذهب التجريبى الحسى يسعى للربط بين هذه الأجزاء لكى يقيم وحدة الشخص، وهو أخيراً كالمذهب التجريبى الحسى من حيث أنه يرى وحدة الشخص وهى تفلت منه بلا تعيين خلال المجهود الذى لايفتأ يجدده للإحاطة بها. ولكن بينما ينتهى الأمر بالتجريبية الحسية ـ وقد أدركها الإعياء ـ إلى أن تعلن أنه ليس هناك شئ غير كثرة الحالات النفسية، يستمر المذهب العقلى فى الإصرار على تأكيد وحدة الشخص. ومن الصحيح أنه لما كان يبحث عن هذه الوحدة فى مجال الحالات النفسية ذاتها، وكما كان مضطراً من جهة أخرى إلى أن يدرج فى حساب الحالات النفسية كل الكيفيات والتعيينات التى يجدها خلال التحليل (مادام التحليل حسب تعريفه ذاته ينتهى دائماً إلى حالات) لم يعد لديه من أجل وحدة الشخص إلا شئ سلبى بحت، أى انتفاء كل تعيين. فلما كانت الحالات النفسية قد استحوذت بالضرورة من خلال هذا التحليل على كل ما يعرض أدنى مظهر من المادية واحتفظت به لنفسها. فلن يمكن أن تكون «وحدة الأنا» سوى صورة بدون مادة، وسيكون لاتعييناً وفراغاً مطلقاً والمذهب العقلى، وهو يعيد بناء الشخصية، يضيف شيئاً ما أكثر ابتعاداً عن الواقع أيضاً، وهو ذلك الخلاء الذى تتحرك فيه الظلال، أى مكان الظلال، إن صح هذا القول، وهو يضيف هذا الخلاء إلى الحالات النفسية المنفصلة أى ظلال الأنا هذه التى يُعَد مجموعها فى نظر الحسيين التجريبيين معادلاً للشخص. فكيف يمكن لهذه «الصورة» ـ وهى فى حقيقة الأمر لاشكل لها ـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن تعبر عن السمة المميزة للشخصية الحية، الفاعلة، المحسوسة، وأن تميز بين بيير وبول؟ فهل يستغرب إذن أن يواجه هؤلاء الفلاسفة الذين فصلوا هذه «الصورة» عن الشخصية بأن الصورة بعد هذا عاجزة عن تعيين الشخص، وأن يؤدى بهم الأمر بالتدريج إلى أن يجعلوا من ذاتهم الفارغة مكاناً قابلا لاقاع له لايخص بول أكثر مما يخص بيير، ويوجد فيه مجال-حسبما يحلو لنا-للإنسانية جمعاء أو لله أو للوجود بأسره؟ وأنا لا أجد هنا بين التجريبية الحسية والمذهب العقلى إلا هذا الفارق الوحيد: وهو أنه لما كان الحسيون التجريبيون يبحثون عن وحدة الذات فيما يشبه نوعاً ما الفجوات الواقعة بين الحالات النفسية ينتهى بهم الأمر إلى سد هذه الفجوات بحالات أخرى، وهكذا إلى مالانهاية، بحيث أن الأنا وقد ضغطت فى حيز يتجه باستمرار إلى الإنكماش بحيث يميل نحو الصفر كلما أوغل المرء فى التحليل،فى حين أن المذهب العقلى لما كان قد جعل من «الأنا» المكان الذى تستقر فيه الحالات النفسية يجد نفسه أمام مكان فارغ ليس ثمة من سبب للوقوف فيه هنا أو هناك، ويتجاوز كل حد من الحدود المتعاقبة التى يراد وضعها لتعيينه،ويستمر فى الإتساع،ويميل إلى أن يتلاشى لافى الصفر ولكن فى اللامتناهى.

فالمدى إذن ليس واسعاً إلى الحد الذى يفترضه البعض بين مذهب حسى تجريبى مزعوم، مثل مذهب تين، وأكثر التأملات تعالياً مما نجده لدى بعض أصحاب مذهب وحدة الوجود من الألمان. فالمذهب متشابه فى كلتى الحالتين وقوامه الاستدلال الذى تستخدم فيه عناصر الترجمة كما لو كانت أجزاءاً من الأصل. ولكن التجريبية الحية الحق هى التى تهدف إلى الإقتراب عن كثب بقدر الإمكان من الأصل نفسه وتسبر أغوار حياته وتجس نبضات النفس بضرب من الكشف الروحى،وهذه التجريبية الحسية الحق هى الميتافيزيقا الحقيقية. ويعتبر هذا العمل على أقصى ما يكون من الصعوبة، لأنه لم يعد فى مقدور أى من التصورات الجاهزة التى يستخدمها الفكر فى عملياته اليومية أن يقدم له أى مساعدة. وليس هناك أسهل من القول بأن الأنا كثرة أو أنها وحدة أو بأنها تركيب من هذه وتلك. فالوحدة والكثرة هنا صورتان لاحاجة لانطباقهما على الموضوع ونجدهما جاهزتى التكوين. كما يحدث حينما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نختار من بين كومة من الملابس الجاهزة ما يصلح منها لبيير ولبول فى نفس الوقت لأن هذه الملابس لاتحمل صورة أى منهما بدقة ولكن التجريبية الحسية الجديرة بهذا الإسم أى تلك التى لاتعمل إلا حسب قياس، تجد نفسها مضطرة بصدد كل موضوع جديد تدرسه – لأن تبذل مجهوداً جديداً كل الجدة. فهى تفصل للموضوع تصوراً مناسباً له وحده، وهو تصور يكاد لايمكن أن نقول عنه إنه تصور، ذلك لأنه لاينطبق إلا على هذا الشئ وحده، فهذه التجريبية لاتباشر عملها بالربط بين أفكار معروضة فى السوق كالوحدة والكثرة مثلاً، ولكن الصورة التى تقودنا إليها تكون ـ على العكس من ذلك– وحيدة بسيطة. مما يجعلنا نفهم تمام الفهم ـ حالما تتكون ـ لماذا نضعها فى إطارات الوحدة والكثرة، وكلاهما أوسع منها بكثير. وأخيراً فإن الفلسفة التى عرفناها على هذا النحو لاتقوم على الإختيار بين التصورات والتحزب لمدرسة معينة، ولكنها تمضى للبحث عن حدس وحيد، تعود فتهبط منه هبوطاً مماثلاً إلى مختلف التصورات ذلك لأننا اتخذنا منها موقفاً فوق الإنقسامات المدرسية.

أما أن للشخصية وحدة، فهذا أمر أكيد ولكن قولاً من هذا القبيل لايعلمنى شيئاً عن الطبيعة الخارقة لهذه الوحدة التى هى الشخص. وأما القول بأن «أنائيتنا» ينبغى أن تكون متكثرة. فإننى أسلم أيضاً به، ولكن توجد هاهنا كثرة يجب أن نعترف أنه ليس بينها وبين أى كثرة أخرى عنصر مشترك، إن الذى يهم الفلسفة حقاً هو معرفة نوع الوحدة أو الكثرة أو الحقيقة التى تعلو على الواحد ـ وعلى الكثير المجردين ـ تلك التى تكون عليها الوحدة المتكثرة للشخص. ولن تصل الفلسفة إلى معرفة هذه الوحدة إلا إذا استحوذت على حدس «الأنا» البسيط بواسطة «الأنا». وبحسب المنحدر الذى تختاره حينئذ لكى تعود إلى الهبوط من هذه القمة ستنتهى إلى الوحدة أو إلى الكثرة أو إلى أى واحد كان من التصورات التى تستخدم فى محاولة تعريف الحياة المتحركة للشخص. ولكننا نكرر قولنا بأن أى خلط بين هذه التصورات لن يمدنا بشئ يشبه الشخص الذى يستمرعبر الزمان.

فإذا أنت قدمت لى مخروطاً جامداً فإننى أتبين بدون مشقة كيف ينقبض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في انكماش متجهاً إلى القمة، ويميل إلى التلاشى فى نقطة رياضية، وكيف ينفسح أيضاً عند قاعدته على شكل دائرة تتسع إلى مالانهاية، إلا أنه لا النقطة ولا الدائرة ولارص الإثنين على سطح يمدنى بأية فكرة عن المخروط، والأمر كذلك فيما يتعلق بالوحدة والكثرة فى الحياة النفسية. وهكذا الأمر أيضاً فيما يخص الصفر واللامتناهى اللذان يستهدف التجريبيون الحسيون والعقليون الانتهاء إليهما فى تحليلهم للشخصية.

والتصورات كما سنبين تتواجد فى العادة مزدوجة؛أى يُرد كل زوجين منهما معاً، وتعبر عن الضدين، ولاتوجد أى حقيقة محسوسة لايمكن أن نحصل بصددها على وجهتى النظر المتضادتين فى نفس الوقت ولاتندرج بالتالى تحت التصورين المتضادين، وينتج عن ذلك قول ونقيضه يستحيل الجمع بينهما منطقياً، وذلك لسبب بسيط جداً مؤداه أنه لايمكن أبداً أن نقيم شيئاً بواسطة تصورات أو وجهات نظر، ولكن المرء ينتقل بدون مشقة فى حالات كثيرة من الموضوع المدرك بالحدس إلى التصورين المتضادين، ولما كان المرء يرى كيف يخرج القول ونقيضه من الواقع الحقيقى؛فهو يدرك فى نفس الوقت كيف يتعرض هذا القول ونقيضه وكيف يأتلفان.

من الصحيح أنه يجب أن نقوم من أجل ذلك بقلب العمل المعتاد للعقل. إن التفكير هو فى العادة الإنتقال من التصورات إلى الأشياء؛وليس من الأشياء إلى التصورات. إن معرفة حقيقية واقعية هى بالمعنى المألوفة لكلمة «المعرفة» أخذ تصورات جاهزة وإجراء الموازنة بينها ثم ربطها فيما بينها حتى يمكن الحصول على مايعادل الواقع عملياً ولكن يجب ألا يغيب عنا أن العمل العادى للعقل بعيد عن أن يكون عملاً مجرداً من المصلحة؛فنحن لانهدف عادة إلى المعرفة من أجل المعرفة، ولكننا نستهدف المعرفة من أجل قرار نتخذه أو مصلحة نقضيها، وبالإختصار لإشباع حاجة. إننا نبحث إلى أى مدى يكون الشئ الذى نبغى معرفته هذا أو ذاك؛ويقع تحت أى جنس معروف وما يثيره لدينا من نوع الفعل أو المسلك أو الموقف. إن هذه الأفعال والمواقف المختلفة والممكنة هى اتجاهات تصورية لفكرنا تتحدد بطريقة نهائية بحيث لايبقى أمامنا إلا أن نتبعها. وهذا هو على وجه التحديد تطبيق التصورات على الأشياء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن محاولة تطبيق التصور على الموضوع هى بمثابة سؤالنا عما يمكن أن نفعله به وما يمكن للشيء أن يفعله من أجلنا. إن لصق بطاقة تصور على شئ ما هو تعيين ـ بألفاظ دقيقة ـ لجنس الفعل أو الموقف الذى يجب أن يثيره الشئ بالنسبة لنا. وكل معرفة بمعنى الكملة تكون إذن موجهة نحو اتجاه ما،أو مستمدة من وجهة نظر معينة. ومن الصحيح أن مصلحتنا كثيراً ما تكون معقدة، ولهذا السبب فقد يحدث أننا نوجه معرفتنا لنفس الموضوع فى عدة إتجاهات متعاقبة،وأن تنوع وجهات النظر حوله. ومن هذا تتألف بالمعنى المعتاد لهذين اللفظين معرفة «واسعة» و «محيطة» للموضوع، وعندئذ نجد الموضوع قد انتهى لا إلى تصور وحيد، ولكن إلى عدد كبير من التصورات، ومن المفروض أنه يشارك فيها». فكيف يشارك فى كل هذه التصورات فى آن واحد؟ ليس هذا بالسؤال الذى يهم الحياة العملية، وليس علينا أن نطرحه على أنفسنا. فمن الطبيعى، بل ومن المشروع أيضاً أن نسلك مسلك الرص وإجراء الموازنة بين التصورات فى الحياة الجارية. ولن تنشأ عن ذلك أية صعوبة فلسفية مادمنا نمتنع ـ بحسب اتفاق ضمنى ـ عن أن تتفلسف.لكن إذا ما نقلنا أسلوب العمل هذا إلى الفلسفة، وإذا ماسرنا هنا أيضاً من التصورات إلى الأشياء واستخدمنا ـ من أجل المعرفة المجردة عن الغرض لموضوع نهدف هذه المرة لأن نستحوذ عليه فى ذاته ـ طريقة للمعرفة تستلهم مصحلة معينة وتكون من حيث تعريفها نظرة أخذت للشئ من خارج، فإن كل ذلك يعنى أننا نولى ظهرنا للهدف الذى كنا نتوخاه، ومعناه أيضاً الحكم على الفلسفة بأن تكون صراعاً أبدياً بين المدارس، وفى هذا أيضاً إحلال للتناقض فى صميم الموضوع وفى المنهج. فإما أن يمتنع وجود أى فلسفة وتكون كل معرفة للأشياء معرفة عملية موجهة نحو منفعة يمكن الحصول عليها منها، وإما أن يكون التفلسف هو التواجد فى الشئ ذاته بمجهود حدسى.

ولكن من أجل فهم طبيعة هذا الحدس ومن أجل أن نحدد أين ينتهى الحدس وأين يبدأ التحليل يجب أن نعود إلى ماقيل سابقاً عن تدفق الديمومة.

وسيلاحظ أن التصورات أو الصور التخطيطية التى ينتهى إليها التحليل تتسم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوهرياً ـ أثناء فحصنا لها ـ بطابع السكون وعدم الحركة. فقد فصلت من الصورة الكلية للحياة الداخلية، هذا العنصر النفسى الذى أسميه إحساساً خالصاً. وأنا أفترض طيلة دراستى له أنه يظل على ماهو عليه، وإذا ما وجدت فيه أى تغير قلت: إنه ليس ثمة إحساس وحيد،ولكن إحساسات عديدة متعاقبة وسأنقل حينئذ إلى كل من هذه الإحساسات المتعاقبة الثبات الذى نسبته من قبل إلى الإحساس فى جملته. وعلى أية حال سيمكننى إذا ما أوغلت فى التحليل بدرجة كافية أن أصل إلى عناصر أعتبرها غير متغيرة. وهنا فقط ـوليس فى أى موضع آخرـ أستطيع أن أجد قاعدة العمليات الراسخة التى يحتاج العلم إليها لكفالة تقدمه الخاص.

ومع ذلك فليس هناك حالة نفسية، مهما بلغت من البساطة، لاتتغير فى كل لحظة مادام ليس هناك شعور بلاذاكرة، ولا استمرار لحالة بدون إضافة ذكرى لحظات سابقة إلى الشعور الحالى، ومن هذاتتكون الديمومة. ذلك لأن الديمومة الداخلية هى الحياة المستمرة لذاكرة تبسط الماضى فى غمار الحاضر، سواء انطوى الحاضر بوضوح على صورة الماضى التى لاتفتأ تتضخم بلا انقطاع أو بالأحرى قام شاهداً ـ بما هو عليه من تغير كيفى مستمر ـ على العبء الذى يزداد ثقلاً باستمرار،والذى يجره المرء وراءه كلما تقدمت به السن،ولولا هذا البقاء للماضى فى الحاضر لما كانت هناك ديمومة ولكن كان هناك تآن فحسب.

من الصحيح أنه إذا ما عيب على أننى انتزع الحالة النفسية من الديمومة بواسطة تحليلى لها فحسب فإننى سأدفع ذلك عن نفسى قائلا: إن كلا من هذه الحالات النفسية الأولية التى ينتهى تحليلى إليها هى حالة لاتزال تشغل زماناً. سأقول : «إن تحليلى يحل فعلاً الحياة الداخلية ويحيلها إلى حالات كل منها متجانس مع نفسه، وذلك فقط لأنه مادام التجانس ينسحب على عدد معين من الدقائق أو الثوانى فإن الحالة النفسية الأولية لاتنقطع عن البقاء فى الزمان على الرغم من أنها لاتتغير، ومن ذا الذى لايلاحظ أن عدد الدقائق والثوانى المعين الذى أنسبه للحالات النفسية الأولية ليس له على وجه التحديد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلا قيمة علامة وظيفتها أن تذكرنى بأن الحالة النفسية التى يفرض أنها متجانسة هى فى الواقع حالة تتغير وتدوم فى الزمان؟ فالحالة إذا ما نظر إليها فى ذاتها هى صيرورة مستمرة، لقد انتزعت من هذه الصيرورة متوسطاً ما من الكيف افترضته غير متغير، فكونت هكذا حالة ثابتة. ولهذا السبب نفسه كانت حالة تخطيطية. وقد انتزعت منها ـ من ناحية أخرى ـ الصيرورة على وجه العموم، تلك الصيرورة التى لم تعد صيرورة لهذا الشئ أو ذاك، وهذا ما أطلقت عليه اسم الزمان الذى تشغله هذه الحالة. وإذا أنا أمعنت النظر عن كثب فسأرى أن هذا الزمان المجرد ثابت بالنسبة لى ثبوت الحالة التى أضعها فيه، وأنه لايمكن أن يتدفق إلا بتغير مستمر فى الكيف. وأنه إذا ما تجرد من الكيفية ـ التى تعتبر كمسرح للتغير ـ أصبح هكذا وسطاً ثابتاً. وسيتبين أن الفرض القائل بزمان متجانس إنما يهدف بكل بساطة إلى تسهيل المقارنة بين الديمومات المحسوسة المختلفة، وأن يتيح لنا أن نحصى حالات تقارن فى الزمان، وأن نقيس تدفق ديمومة بالنسبة إلى ديمومة أخرى. وسأدرك فى النهاية أننى حينما أضم إلى الصورة حالة نفسية أولية، علامة عدد معين من الدقائق والثوانى فإنى اقتصر على أن أذكر أن الحالة اقتطعت من «أنا» يدوم فى الزمان، وكذلك فإننى أحدد المكان الذى ينبغى أن أضعها فيه، وهى حاصلة على الحركة لأردها من الصورة التخطيطية البسيطة التى آلت إليها إلى الصورة المحسوسة التى كانت لها من قبل. ولكننى أنسى كل ذلك ما دمت لاأحتاج إليه فى التحليل.

وذلك يعنى أن التحليل إنما ينصب على الثابت، بينما يتواجد الحدس فى الحركة أو فى الديمومة، وذلك أمر واحد، وهنا نجد خط التحديد الأكثر وضوحاً بين الحدس والتحليل. فالمرء يتعرف على الواقعى والحى والمحسوس من حيث أنه التغير نفسه، ويتعرف على العنصر من حيث أنه لا يتغير، وهو ثابت من حيث تعريفه، إذ أنه صورة تخطيطية وتركيب جديد مبسط يكون فى الغالب رمزاً بسيطاً، وعلى أيه حال يكون منظراً التقط من الواقع الذى يتدفق.

ويرجع الخطأ إلى الاعتقاد بأنه يمكن إعادة تأليف الواقع بواسطة هذه الصور التخطيطية. ومهما أطنبنا فى القول فلن نستطيع أن نزيد على قولنا بأنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الحدس يمكن الإنتقال إلى التحليل، ولكن لايمكن الإنتقال من التحليل إلى الحدس.

وسيكون فى وسعى بواسطة ماهو متغير أن أضع قدراً كبيراً من المتغيرات وقدراً كبيراً من الكيفيات أو التعديلات حسبما يحلو لى، ذلك لأن هاهنا عدداً كبيراً من المناظر الثابتة التي أخذت بواسطة التحليل عن التحرك المعطى بالحدس، ولكن هذه التعديلات إذا ما وضعت طرفاً إلى طرف لن تنتج شيئاً يشبه ما هو متغير متنوع، لأنها لم تكن أجزاء منه، بل هى عناصر له، وهو شئ يختلف تمام الاختلاف.

لنأخذ مثلاً أشد أنواع التغير من التجانس وهو الحركة فى المكان: فى استطاعتى أن أتصور على مدى الحركة وقفات ممكنة، وهذا ما أسميه مواضع الشئ المتحرك، أو النقط التى يمر بها الشئ المتحرك، ولكننى لن أستطيع أن أصنع الحركة بهذه المواضع ولو كانت لانهائية فى العدد، فهى ليست أجزاء من الحركة، بل هى مناظر التقطت بقدر عدد الوقفات للحركة، ويمكن القول بأنها ليست سوى افتراضات توقف. والشئ المتحرك لايكون قط فى الواقع فى أى من النقط، وأكثر ما يمكن أن يقال هو أنه يمر بها، ولكن المرور ـ وهو حركة ـ لايشترك فى شئ مع التوقف وهو ثبات. ولايمكن وضع الحركة على الثبات إذ أنه سيتطابق حينئذ معها، وهو أمر متناقض، فالنقط ليست فى الحركة كأجزاء ولاتحت الحركة كأماكن الشئ المتحرك، بل هى بكل بساطة نقط نلقيها نحن تحت الحركة بقدر عدد الأماكن التى يمكن أن يحل فيها الشئ المتحرك إذا ما توقف، بينما هو فرضاً لايتوقف. وإذن فليست هى «مواقف» بالمعنى المحدد للكلمة، بل هى افتراضات أو مواقف أو وجهات نظر للذهن، فكيف تكون شيئا عن وجهات نظر؟

ومع ذلك فإن هذا هو مانحاول عمله كلما انصب تفكيرنا على الحركة وأيضاً على الزمان الذى يستخدم المكان لتمثيله. فنحن ـ بسبب وهم متأصل فى أعماق نفوسنا، ولأننا نعجز عن الامتناع عن اعتبار التحليل معادلاً للحدس ـ نبدأ بأن نميز على مدى الحركة عدداً معيناً من الوقفات الممكنة أو من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النقط التى نجعل منها شئنا أم أبينا أجزاء للحركة، وحينما نواجه بعجزنا عن إعادة تأليف الحركة بواسطة هذه النقط فإننا نُدرج نقطاً أخرى معتقدين بهذا أننا نمسك بشدة وعن كثب بما تنطوى عليه الحركة من حركية. ثم لما كان التحرك لايزال يفلت منا فإننا نحل عدداً من النقط يزداد بلاحدود، محل عدد متناه محدود منها محاولين بذلك عبثاً، محاكاة الحركة الواقعية الغير المنقسمة للشئ المتحرك، بواسطة حركة فكرنا الذى يستمر فى إضافة نقط إلى نقط أخرى بدون تحديد، ثم نقول فى النهاية إن الحركة تتكون من نقط إلا أنها تشتمل علاوة على ذلك على الإنتقال المبهم الغامض من موضع إلى موضع يليه، كما لو لم يكن الغموض يرجع بأكمله إلى ما افترضناه من أن الثبات أكثر وضوحاً من التحرك وأن التوقف سابق على الحركة. وأيضاً كما لو لم يكن سبب الغموض هو الزعم بأننا ننتقل من التوقفات إلى الحركة عن طريق التأليف، وهو أمر مستحيل، فى حين يتم الانتقال بسهولة من الحركة إلى الإبطاء ثم إلى الثبات،لقد بحثت عن معنى القصيدة فى صورة الحروف التى تتألف منها، وظننت أنك بتأمل عدد متزايد من الحروف ستحيط أخيراً بالمعنى الذى لايزال يفلت منك. وعند انعدام جميع الوسائل، حين رأيت أنه لاجدوى من البحث عن جزء من المعنى فى كل من الحروف على حدة افترضت أن الجزء الذى تبحث عنه من المعنى الخفى يكمن بين كل حرف والحرف الذى يليه،ولكننا نعيد القول مرة أخرى: إن مواضع الشئ المتحرك ليست أجزاء من الحركة بل هى نقط من المكان يفترض أن الحركة تحدث بين طرفيها. وهذا المكان الثابت الفارغ موضوع التصور المجرد والذى لايدرك أبدا عن طريق الحس يتصف عن جدارة بأن له قيمة الرمز. فكيف يتسنى لنا أن نصنع الحقيقة الواقعية باستخدام الرموز؟

ولكن الرمز يستجيب هنا لأشد عادات فكرنا تأملاً. فنحن نستقر عادة فى الثبات، حيث نجد نقطة ارتكاز من أجل الحياة العملية، ونزعم أننا نعيد تأليف التحرك بواسطة الثبات. ونحن لانحصل هكذا إلا على محاكاة غير مستقيمة وتقليد مزيف للحركة الواقعية، ولكن هذا التقليدَ يفيدنا فى الحياة أكثر بكثير مما قد يفيدنا الحدس بالشئ نفسه. والواقع أن عقلنا لديه ميل جارف إلى أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعتبر الفكرة التى تفيده فى أغلب الأحوال على أنها أشد وضوحاً من غيرها، ولهذا السبب فإن الثبات يبدو لعقلنا أشد وضوحاً من التحرك كما يبدو له السكون سابقا على الحركة.

وهذا هو مصدر الصعوبات التي أثارتها مشكلة الحركة منذ أقدم العصور. فسببها دائما هو زعم الإنتقال من المكان إلى الحركة، أى من المسافة المكانية إلى قطع هذه المسافة، ومن المواضع الثابتة إلى التحرك، والإنتقال من الأولى إلى الثانية عن طريق التأليف. ولكن الحركة هى التى تسبق الثبات وليس بين المواضع والإنتقال علاقة الأجزاء بالكل، بل إن النسبة بينهما هى نفس النسبة بين مايمكن أن ينشأ حول الشئ من وجهات نظر كثيرة متباينة، وبين ماهو عليه فى الواقع من عدم قابلية للانقسام.

وقد نشأت عن نفس هذا الوهم مشاكل أخرى كثيرة. فنسبة النقط الثابتة إلى حركة شئ متحرك هى نفس نسبة تصورات الكيفيات المختلفة إلى التغير الكيفى للشئ. فالتصورات المختلفة التى ينحل إليها شئ متنوع ليست سوى عدد مساو من الرؤى الثابتة المأخوذة عند عدم ثبات (أى حركة) الشئ الواقعى. وليس التفكير فى شئ ما بالمعنى المألوف عادة لكلمة «تفكير» سوى أن نأخذ من حركة الشئ منظراً أو أكثر من هذه المناظر الثابتة،وهذا على وجه الإجمال تساؤل عن حالة هذا الشئ، يحدث بين حين وآخر لنعرف ما يمكن أن نفعله به. وعلى أيه حال، ليس هناك من أمر أكثر مشروعية من هذه الطريقة فى التصرف. مادام الأمر لايتعلق إلا بمعرفة عملية للواقع. فالمعرفة من حيث أنها موجهة نحو ما هو عملى ليس عليها إلا أن تحصى المواقف الرئيسية الممكنة للشئ تجاهنا. وكذلك ترصد أيضاً أفضل المواقف الممكنة تجاهه. وهذا هو الدور المألوف الذى تؤدية التصورات الجاهزة،وهى هذه المواقف التى نضمها كعلامات لمسيرة الصيرورة،ولكن الرغبة فى النفاذ بها إلى صميم طبيعة الأشياء معناه أن نطبق على تحرك الواقع منهجا أعد ليقدم لنا وجهات نظر ثابتة عنه. وبهذا نحن ننسى أنه إذا كانت الميتافيزيقا ممكنة، فإنها لايمكن إلا أن تكون مجهوداً لصعود منحدر الميل الطبيعى لعمل الفكر، للإستقرار فوراً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بضرب من الإنبساط والتمدد العقلى فى الشئ الذى ندرسه،وأخيراً للسير في الواقع إلى التصورات وليس من التصورات إلى الواقع، فهل من الغريب إذن أن يرى الفلاسفة ـ فى غالب الأحايين ـ الشئ الذى يزعمون الإحاطة به وقد أفلت من بين أيديهم، مثلهم فى ذلك مثل الأطفال الذين يريدون الإمساك بالدخان بقبض أيديهم عليه؟ وهكذا تستمر المنازعات الكثيرة بين المدارس التى تلوم كل منها الأخرى على أنها تركت الواقع يفلت منها.

ولكن إذا كان على الميتافيزيقا أن تسلك مسلك الحدس،وإذا كان موضوع الحدس هو تحرك الديمومة،وكانت الديمومة ذات ماهية سيكولوجية، أفيكون معنى هذا أن نحبس الفيلسوف فى نطاق التأمل المستغرق لذاته؟ أفلن يكون قوام الفلسفة أن يتأمل المرء فى حياة نفسه فحسب وهو يعيش، كما ينظر راع ناعس إلى الماء وهو ينساب؟ إن الكلام على هذا الوجه هو عود إلى الخطأ الذى لم نكف عن الإشارة إليه منذ بداية هذه الدراسة. إن فى هذا إنكاراً لما فى الديمومة من طبيعة فريدة، وإنكاراً فى نفس الوقت للخاصية ذات الفاعلية الجوهرية للحدس الميتافيزيقى. وهذا يعنى أننا لانرى أن المنهج الذى نتحدث عنه يتيح لنا أن نتجاوز المثالية كما نتجاوز الواقعية. وأن نؤكد وجود أشياء دوننا وأخرى أسمى منا، وإن كانت بمعنى ما داخل أنفسنا وأن نجعلها توجد معاً بدون صعوبة، وأن تبدد بالتدريج مواطن الغموض التى يجمعها التحليل حول المشكلات الكبرى ولنقتصر هنا ـ دون أن نعرض لدراسة وجهات النظر المختلفة هذه ـ على أن نشير إلى كيف لايكون الحدس الذى نتكلم عنه فعلا وحيداً بل يكون سلسلة لامحدودة من الأفعال والتى تكون من جنس واحد بلاشك بينما يكون كل منها من نوع خاص جداً، وكيف يقابل هذا الاختلاف فى الأفعال جميع درجات الوجود.

إذا حاولتُ تحليل الديمومة أى أن أحللها إلى تصورات جاهزة، فإنى أكون مضطراً بحسب طبيعة التصور ذاته والتحليل إلى أن أحصل عن الديمومة عموماً على نظرتين متعارضتين أزعم فيما بعد تأليفهابواسطتهما. وهذا الربط لايمكن أن يقدم لى لا اختلافاً فى الدرجات ولاتنوعاً فى الصور سواء وجد أم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يوجد. سأقول مثلاً إنه هناك ـ من ناحية ـ كثرة من حالات الشعور المتعاقبة، وتوجد من ناحية أخرى وحدة تجمع بينها. وستكون الديمومة هي «تركيب» هذه الوحدة وهذه الكثرة، وهي عملية خفية أكرر القول بأننا لانرى كيف تنطوى على اختلافات بين الألوان أو على درجات. وليس هناك وفقاً لهذا الفرض-ولن يمكن أن يوجد-سوى ديمومة وحيدة تلك التى يعمل شعورنا فى العادة داخل إطارها. فإذا ما أخذنا الديمومة ـ بداعى تثبيت الأفكار تحت المظهر البسيط لحركة تتم فى المكان ـ وحاولنا أن نرد الحركة التى تعتبر ممثلة للزمان إلى تصورات، فإنه سيكون لدينا من ناحية عدد كبير من نقط المسافة بالقدر الذى يحلو لنا، وسيكون لدينا من جهة أخرى وحدة مجردة تجمع بينها كما يضم الخيط لآلئ العقد. والربط بين هذه الكثرة المجردة وهذه الوحدة المجردة ـ عندما يسلم بإمكانه ـ يكون أمراً غريبًا لانجد فيه فروقاً طفيفة أكثر من تلك التى تجدها فى الحساب حينما نجمع أعداداً معينة. ولكن إذا مانحن استقررنا داخل الديمومة بمجهود من الحدس بدلا من أن نزعم تحليل هذه الديمومة (أى فى الواقع أن نقوم بتركيبها بوساطة التصورات) أحسسنا بتوتر معين تماماً، يبدو تعيينه نفسه كاختيار بين عدد لايحصى من الديمومات الممكنة، ومن ثمة فإننا ندرك الديمومات كثيرة العدد، كما يحلو لنا بحيث يكون بعضها مختلفاً تماماً عن البعض الآخر، على الرغم من أن كلاً منها إذا مارُدَّ إلى تصورات، أى إذا ما نظر إليها من الخارج من وجهتى النظر المتقابلتين فإنها ترجع دائماً إلى نفس الربط غير المعين الكثير والواحد.

ولنعبر عن نفس الفكرة بدقة أشد. فإذا ما اعتبرت الديمومة كثرة من اللحظات يرتبط بعضها بالبعض الآخر بواسطة وحدة تخترقها كخيط، فإن هذه اللحظات مهما كان قصر الديمومة التى يقع الإختيار عليها ستكون غير محدودة العدد، ويمكننى اعتبارها متجاورة كما يحلو لى، فسيكون هناك دائماً بين هذه النقط الرياضية نقط رياضية أخرى وهكذا إلى مالانهاية. فإذا ما عرضنا للديمومة من ناحية الكثرة، فإننا نجدها قد أخذت فى التلاشى فى حفنة من الآنات ليس لأى منها صفة الدوام من حيث أن كلاً منها آن فورى. وإذا ما اعتبرت-من جهة أخرى-الوحدة التى تربط الآنات بعضها ببعض، فإن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الوحدة لايمكن أن تكون أكثر دواماً من كل الآنات على حدة، لأنه بحسب الفرض، نجد أن كل ماهو متغير وماله صفة الدوام فى الديمومة قد أدرج فى حساب كثرة الآنات وستبدو لى هذه الوحدة إذن كلما تعمقت فى ماهيتها مثل مقوم ثابت للمتحرك كماهية غير زمنية الزمن لا أعرف كنهها، وهذا ما سأطلق عليه إسم الأزلية ـ وهى أزلية موات ـ مادامت ليست بشئ سوى الحركة وقد جردت من التحرك الذى كان يشكل أساس حياتها. وسيرى المرء عند الإمعان فى فحص آراء المدارس المتعارضة بصدد الديمومة أنها تختلف فقط فى أنها تنسب لهذا أو لذاك من هذين التصورين أهمية جوهرية. فبعضها تتشبث بوجهة النظر القائمة على التكثر، فتجعل من آنات متمايزة لزمان سبق لها أن سحقته ـ إن صح هذا التعبير ـ واقعاً محسوساً، وهى ترى الوحدة التى تجعل من الذرات مسحوقاً وحدة أكثر صناعية. وأما المدارس الأخرى، فهى على العكس من السابقة تقيم وحدة الديمومة فى الواقع المحسوس، فهى تستقر إذن فى الأزلية، ولكن لما كانت هذه الأزلية مع هذا مجردة من حيث أنها مفرغة، ونظراً لأنها أزلية تصور، وهى تستبعد من هذه الناحية ـ فرضاً ـ التصور المضاد، لايمكن أن نتبين كيف أمكن لهذه الأزلية أن تتيح لكثرة غير معينة من الآنات أن تتعاصر معها، ولدى المرء فى الفرض الأول عالم معلق فى الهواء يجب أن ينتهى ويعيد بناء نفسه بنفسه من جديد فى كل لحظة، وأما فى الفرض الثانى فلدينا لامتناه من الأزلية المجردة نعجز أيضاً أن ندرك سبب عدم بقائها منطوية على نفسها، وكيف تتيح للأشياء أن تتعاصر معها، ولكنه فى كلتى الحالتين ـ ومهما يكن أى من فرعى الميتافيزيقيا التى اتجه المرء فى مسارها ـ فإن الزمان يبدو من وجهة النظر السيكولوجية كما لو كان خليطاً من تجريدين لايحتملان درجات أو فروقاً طفيفة. وفى هذا المذهب، كما فى المذهب الآخر لاتوجد سوى ديمومة وحيدة تحمل كل شئ معها، وهى نهر بلاقاع ولاشواطئ ينساب بقوة غير معينة فى اتجاه لايمكن تعيينه، وبالإضافة إلى هذا أليس هذا نهراً!! ومن ثمة فهو لاينساب، إلا لأن الواقع يحصل من كل من المذهبين على هذه التضحية منتهزاً فرصة تراخ فى منطقهما، وهما لايكادان يتثبتان من موقعهما من جديد حتى يجمدان هذا الانسياب، إما فى صورة سطح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واسع جامد وإما على صورة عدد لاحصر له من الرؤوس المدببة المتبلورة، أى دائماً على صورة شئ يشارك بالضرورة فى ثبات وجهة نظر معينة.

والأمر على خلاف ذلك تماماً إذا ما استقر المرء دفعة واحدة بمجهود من الحدس، فى الإنسياب المحسوس للديمومة. ولن نجد بالتأكيد أى سبب منطقى يسمح لنا بأن نفرض وجود ديمومات متكثرة ومتنوعة وعلى أسوأ الفروض من الممكن ألا توجد ديمومة أخرى سوى ديمومتنا، كما يمكن ألا يوجد فى العالم لون آخر غير اللون البرتقالى مثلاً. ولكن كما أن شعوراً يقوم على أساس من اللون يتعاطف داخلياً مع اللون البرتقالى، بدلاً من أن يدركه حسياً من الخارج، سيحس وقد وقع بين الأحمر والأصفر، وحتى ربما أدرك فى إبهام تحت هذا اللون الأخير طيفاً كاملا، يمتد فيه الاستمرار الذى يبدأ بالأحمر وينتهى إلى الأصفر، وهكذا فإن حدس ديمومتنا مع أنه أبعد من أن يتركنا معلقين فى الفراغ كما يفعل التحليل الخالص، فإنه يجعلنا نتماس مع استمرار كامل من الديمومات يتعين علينا محاولة متابعتها إما إلى أسفل وإما إلى أعلى، ويمكننا فى كلتى الحالتين، أن نمدد أنفسنا إلى غير حدود بمجهود يزداد شدة، وفى كلتى الحالتين نحن نتجاوز ذواتنا. وفى الحالة الأولى نسير نحو ديمومة تزداد تشتتاً بسبب ذبذباتها الأشد سرعة من ذبذبات نفوسنا والتى تقسم شعورنا البسيط بتحويل الكيفية إلى كمية تدريجياً، وسيوجد عند الحد الأقصى ماهو متجانس بحت أى ذلك التكرار الخالص الذى بواسطته نعين المادية. وإذا ماسرنا فى الإتجاه الآخر فإننا نتجه نحو ديمومة تنبسط أو تنقبض أو تشتد أكثر فأكثر وعلى طول المدى توجد الأزلية، لا الأزلية التصورية وهى أزلية موت، ولكنها أزلية حياة، إنها حية وبالتالى متحركة أيضاً حيث تتواجد ديمومتنا كما توجد الومضات فى الضوء، وحيث تجمع هذه الديمومة الأزلية كل الديمومات الأخرى، كما تكون كل مادية تشتيتاً لها ويتحرك الحدس بين هذين الحدين الأقصيين، وهذه الحركة هى الميتافيزيقا بعينها.

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وليس هنا مجال استعراض المراحل المختلفة لهذه الحركة. ولكن بعد أن عرضنانظرة عامة عن المنهج، وطبقناه تطبيقاً أولياً، لعله يكون من المجدى أن نصوغ بعبارات دقيقة بقدر المستطاع المبادئ التى يعتمد عليها. وقد نالت أغلب القضايا التى سندلى بها بداية برهان فى العمل الحالى، ونأمل أن نبرهن عليها برهنة أكمل عندما نتصدى لمشاكل أخرى.

أولاً ـ توجد حقيقة واقعية خارجية، وهى مع ذلك معطاة مباشرة لعقلنا والفهم الشائع على حق فى هذه النقطة حينما يعارض مثالية الفلاسفة وواقعيتهم.

ثانياً ـ إن هذه الحقيقة الواقعية هى "تحرك"، فلا توجد أشياء جاهزة بل توجد فقط أشياء فى طور التكوين، كما لاتوجد حالات مستقرة، بل توجد فقط حالات تتغير، فالسكون لايكون قط إلا ظاهرياً أو بالأحرى نسبياً والشعور الذى لدينا عن ذاتنا الخاصة خلال تدفقها المستمر إنما يدخلنا فى باطن حقيقة واقعية يجب علينا أن نحتذيها فى تصورنا للحقائق الواقعية الأخرى. إذن فإن كل حقيقة واقعية ليست سوى «ميل»، إذا تم الاتفاق على أن نطلق كلمة "ميل" على تغير فى الإتجاه فى طور نشوئه.

ثالثاً ـ إن الوظيفة الرئيسية لعقلنا الذى يبحث عن نقط ارتكاز صلبة خلال مجرى الحياة العادى هى أن يتصور حالات وأشياء. إنه يلتقط فى فترات متباعدة وجهات نظر شبه آنية عن تحرك الواقع، ومن ثمة يحصل على إحساسات وأفكار. وبهذا يجعل المنفصل فى موضع المستمر، ويضع الثبات فى موضع التحرك، ويضع النقط الثابتة التى تعين اتجاهها للتغير وللميل محل الميل الذى فى طور التغير، وهذا الإحلال ضرورى للفهم الشائع وللغة وللحياة العملية، بل وللعلم الوضعى إلى درجة ما، سنحاول تحديدها. إن عقلنا عندما يتبع ميله الطبيعى إنما يعمل بواسطة الإدراكات الحسية الجامدة، من ناحية، والتصورات الثابتة من ناحية أخرى. فهو يبدأ من الثابت، ولايتصور الحركة ولايعبر عنها إلا بدالة الثبات فهو يستقر فى تصورات جاهزة تماما ويحاول أن يقنص بها ـ كما يحدث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الشبكة ـ شيئاً من الحقيقة الواقعية التى تترى. ولايحدث ذلك، بلا ريب من أجل الحصول على معرفة داخلية وميتافيزيقية للواقع. إن ذلك يحدث فقط بقصد الإستخدام العملى لهذا الواقع، ذلك لأن كل تصور (كما هو شأن كل إحساس من جهة أخرى) إنما يعد سؤالاً عملياً يوجهه نشاطنا إلى الواقع، وسيجيب عليه هذا الواقع بما يقتضية الأمر فى مجال الأعمال بنعم أو بلا. ولكن نشاطنا يترك بذلك جوهر الواقع يفلت من الواقع نفسه.

رابعاً ـ إن الصعوبات التى تنطوى عليها الميتافيزيقا، والمناقضات التى تثيرها، والتناقضات التى تقع فيها. وانقسامها إلى مدارس متنازعة. والمعارضات التى لايمكن حلها بين المذاهب إنما ترجع فى الجزء الأكبر منها إلى أننا نستخدم فى مجال معرفة الواقع المنزهة عن الغرض، الأساليب التى نستخدمها عادة فى اجتلاب المنفعة العملية. وتنجم هذه الصعوبات بصفة رئيسية عن استقرارنا داخل الثابت لنراقب المتحرك عند مروره بدلاً من أن نتواجد داخل المتحرك نفسه لنجتاز معه المواضع الثابتة، وترجع أيضاً إلى أننا نزعم أننا نعيد تأليف الواقع، وهو ميل، وبالتالى تحرك بالإدراكات الحسية والتصورات التى من وظيفتها جعله ثابتاً، ولن يكون فى وسعنا أن ننشئ حركة بواسطة التوقفات مهما كثر عددها، بينما إذا ما تواجد المرء مع المتحرك أمكنه أن يستخلص ـ بالفكر ـ القدر الذى يحلو له من التوقفات. وبتعبير آخر نفهم **أنه من الممكن لفكرنا أن يستخلص تصورات ثابتة من الواقع المتحرك، ولكن لاتوجد أى وسيلة لإعادة تكوين تحرك الواقع عن طريق ثبات التصورات**. ومع ذلك، فقد حاول دائماً أصحاب مذهب اليقين ـ وهم المنشئون للمذاهب ـ أن يقوموا بهذا التأليف.

خامساً ـ وكان لابد لهم أن يفشلوا، وإن هذا العجز ـ وهذا العجز وحده ـ هو ماتقرره المذاهب الشكية والمثالية والنقدية، وبالإجمال كل المذاهب التى تقدح فى قدرة عقلنا على الإحاطة بالمطلق. ولكن فشلنا فى إعادة بناء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الواقع الحى بتصورات جامدة وجاهزة، لاينتج عنه أننا نعجز عن الإستحواذ عليه بطريقة ما من الطرق الأخرى. وإذن، فالبراهين التى **يُرهن بها على نسبية معرفتنا مشوبة جميعًا بعيب أصلى، فهى تفترض تماماً ـ كما يفعل أصحاب مذهب اليقين الذى تهاجمه ـ أن أى معرفة يتعين أن تبدأ من التصورات ذات العالم المحددة لتطوى معها الحقيقة الواقعية المتدفقة.**

سادساً ـ ولكن الحقيقة هى أنه فى إمكان عقلنا أن يسلك المسلك العكسى، يمكنه أن يستقر فى الواقع المتحرك، ويتخذ مساره الذى لايكف قط عن التغير ويمكنه أخيراً أن يستحوذ عليه بالحدس. ويجب عليه من أجل ذلك أن يكبح نفسه وأن يعكس اتجاه العملية التى يفكر عادة بواسطتها، وأن يقلب أو بالأحرى أن يصوغ من جديد مقولاته بدون انقطاع، ولكنه سينتهى هكذا إلى تصورات مرنة فى إمكانها أن تُلاحق الواقع فى جميع تعرجاته، وأن يتخذ نفس حركة الحياة الداخلية للأشياء. وهكذا فقط تتكون فلسفة تقدمية متحررة من المنازعات التى تقع بين المدارس، وفى مقدورها أن تحل المشاكل حلاً طبيعيًا، لأنها تكون قد تخلصت من الألفاظ المصطنعة التى سبق اختيارها لعرضها. **إن قوام التفلسف إذن هو عكس المسار العادى لعمل الفكر.**

سابعاً ـ لم يسبق لأحد أن مارس هذا العكس بطريقة منهجية، ولكن التاريخ العميق للفكر البشرى سيبين لنا أننا مدينون له بأعظم ما تم إنجازه فى العلوم. وكذلك بأشد ماهو قابلية للخلود فى الميتافيزيقا وإن أقوى مناهج البحث والاستقصاء التى يمتلكها العقل الإنسانى، وهو منهج تحليل الكميات اللامتناهية الصغر[1] قد نشأ عن هذا العكس نفسه. والرياضة الحديثة هى على وجه التحديد مجهود غايته إحلال **ما هو فى طور التكوين محل ما هو مكتمل الوجود**، ولمتابعة تكوين المقادير وللإستحواذ على الحركة لامن الخارج، وفى نتيجتها السطحية الظاهرية، بل من

---

(١) وهو التحليل القائم على حساب التفاضل والكامل Analyse infinitésimale.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الداخل وفى ميلها إلى التغير، وأخيراً لمسايرة الإستمرار المتحرك لرسم الأشياء. ومن الصحيح أيضاً أنها لم يمكنها الوصول إلى تطبيقاتها الرائعة إلا بابتداع بعض الرموز. وأنه إذا ما كان الحدس الذى تحدثنا عنه منذ حين هو أصل هذا الإبتداع، فإن الرمز وحده هو الذى يتدخل عند التطبيق. ولكن الميتافيزيقا التى لاتستهدف أى تطبيق عملى سيكون فى مقدورها – وفى الغالب ستضطر – إلى الإمتناع عن تحويل الحدس إلى رمز، وهى حينما تتخلص من الالتزام بالانتهاء إلى نتائج يمكن استخدامها عملياً ستتمكن من أن توسع مجال بحثها بلاحدود. وما تكون قد فقدته بالنسبة إلى العلم من حيث الفائدة والدقة ستعود وتكسبه من حيث المضمون والمجال. فإذا كانت الرياضة هى علم المقادير وكانت الأساليب الرياضية لاتنطبق إلا على الكميات، فيجب ألا ننسى أن الكمية هى دائماً الكيفية فى طور النشأة. ويمكن القول بأنها حد هذه النشأة. فمن الطبيعى إذن أن تتبنى الميتافيزيقا الفكرة التى نشأت عنها الرياضة فى عصرنا لكى تجعلها تشمل جميع الكيفيات أى الحقيقة على وجه العموم. ولن تتجه قط عن هذا الطريق إلى الرياضة الكلية أى خرافة الفلسفة الحديثة، بل على العكس، إنها كلما تقدمت فى طريقها صادفت أشياء أشد فى عدم قابليتها لأن تترجم إلى رموز ولكنها تكون على الأقل قد شرعت فى أن تتصل باستمرار بالحقيقة الواقعية وحركيتها فى المجال الذى يمكن فيه استعمال هذا الإتصال أروع استعمال، وتكون بذلك قد تأملت فى مرآة تعكس إليها صورة من ذاتها منكمشة جدا، بلاشك، ولكنها أيضاً مضيئة جداً، ستكون قد شاهدت بوضوح تام ماتستمده الوسائل الرياضية من الواقع المحسوس، وستواصل سيرها فى طريق الحقيقة الواقعية الملموسة، لافى طريق الأساليب الرياضية. ولنقل إذن بعد أن خففنا مقدماً ما لهذه العبارة من شدة تواضع ومن طموح جامح، فى آن واحد، إن أحد أهداف الميتافيزيقا هو القيام بعمليات التفاضل والتكامل الفلسفية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثامناً ـ والأمر الذى استبعد هذا الهدف عن مجال النظر، والأمر الذى أمكنه أن يضلل العلم نفسه هو أن الحدس بعد أن يتم الاستحواذ عليه يجب أن يجد وسيلة للتعبير والتطبيق تتمشى مع عادات تفكيرنا، وتمدنا ـ بواسطة تصورات محددة الأطراف تحديداً تاماً ـ بنقط الارتكاز المتينة التى نحتاج إليها حاجة شديدة. وهنا يتوفر شرط مانسميه إحكاماً ودقة، وأيضاً التطبيق اللامحدود لمنهج عام على حالات خاصة. ولكن هذا المد وهذا العمل المحكم منطقياً من الممكن أن يستمر قروناً، بينما لايبقى الفعل المحدث للمنهج سوى لحظة واحدة. وهذا هو السبب فى أننا غالباً ما نأخذ الأداة المنطقية للعلم على أنها العلم نفسه غافلين من الحدس الذى أمكن للباقى أن يصدر عنه.

إن كل ما قاله الفلاسفة والعلماء أنفسهم عن «نسبية» المعرفة العلمية قد نجم عن إغفال هذا الحدس، إن النسبى إنما هو المعرفة الرمزية بوساطة التصورات السابقة فى الوجود، والتى تدرج من الثابت إلى المتحرك، ومن ثم فإنه لا يتخذ شكل المعرفة الحدسية التى تستقر داخل المتحرك، وتنفذ إلى صميم حياة الأشياء وتحيا فى داخلها.

إن هذا الحدس – أى العرفة المباشرة للحياه المتحركة – إنما يلغ المطلق، فالعلم والميتافيزيقا يلتقيان إذن فى الحدس، وستحقق الفلسفة الحدسية حقاً الإتحاد الذى طالما رغبنا فيه بين الميتافيزيقا والعلم، ففى نفس الوقت الذى نجعل فيه من الميتافيزيقا علماً وضعياً ـ وأعنى بذلك علماً تقدمياً وقابلاً للسير نحو الكمال بلاحدود ـ ستؤدى بالعلوم الوضعية بمعنى الكلمة، لأن تشعر بمدى مرماها الحقيقى، وهو فى الغالب أكثر سمواً بكثير مما تتخيله، وستزيد من المسحة العملية للعلم. وسيكون من نتيجتها أن نعيد إقامة الإستمرار بين الحدوس التى حصلت عليها العلوم الوضعية المختلفة خلال تاريخها والتى لم تحصل عليها إلا بومضات من العبقرية.

تاسعاً ـ أما أنه ليس ثمة طريقتان مختلفتان لمعرفة الأشياء معرفة كاملة، وأن جذور العلوم المختلفة توجد فى الميتافيزيقا، فهذا ما رآه على وجه العموم الفلاسفة القدماء. ولم يكن هنا خطأهم، لقد كان قوامه استلهام هذا الاعتقاد الطبيعى جداً بالنسبة للعقل الإنسانى وهو أن أى تغير لايمكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن يظهر أو ينمى لامتغيرات. وينشأ عن ذلك أن الفعل «الإلهى» لم يكن سوى تأمل شابه الضعف وإن الديمومة صورة خادعة ومتحركة للأزل الثابت، والروح سقوط للمثال. إن كل هذه الفلسفة التى تبدأ بأفلاطون وتنتهى إلى أفلوطين هى تطور لمبدأ نصوغه على الوجه الآتى:

«يوجد فى غير المتحرك قدر من الحقيقة أكبر مما يوجد فى المتحرك، وإننا ننتقل من الثابت إلى غير الثابت بواسطة عملية إنقاص بسيطة، ولكن الصحيح هو العكس».

ويبدأ تاريخ العلم الحديث من اليوم الذى جعلنا فيه من المتحرك حقيقة واقعية مستقلة. إنه يبدأ فى اليوم الذى كان جاليليو يدحرج فيه كرة صغيرة على سطح مائل، فصمم تصميماً حاسماً على أن يدرس هذه الحركة من أعلى إلى أسفل من أجلها هى نفسها بدلاً من البحث عن مبدئها فى تصورى الأعلى والأسفل، وهما صيغتان ثابتتان ظن أرسطو أنه يستطيع أن يفسر بهما التحرك تفسيراً كافياً. وليس هذا بالحادث الوحيد فى تاريخ العلم، فنحن نعتبر أن الكثير من الإكتشافات العظيمة، ومن بينها على الأقل تلك التى غيرت وجه العلوم الوضعية أو تلك التى أنشأت علوماً جديدة منها، كانت كلها جولات مسبار لأغوار الحقيقة المعطاة لنا، خلال الديمومة الخالصة. وكلما كانت الحقيقة الواقعية الملموسة أكثر حيوية كانت جولة المسبار أكثر عمقاً.

ولكن المسبار الذى يلتقى به فى أعماق البحر يجلب معه كتلة سائلة تجففها الشمس، وسرعان ما تقلبها إلى حبات رمل صلبة ومنفصلة. والحدس بالديمومة إذا ما عرض تحت أشعة العقل اتخذ هو أيضاً حالاً صورة تصورات جامدة متميزة ثابتة. فالعقل يجتهد لكى يسجل فى الحركة الحية للأشياء مواقف واقعية أو محتملة، إنه يسجل نقط بداية ونقط وصول، وهذا هو كل مايهم فكر الإنسان وهو يمارس عمله ممارسة طبيعية. ولكن الفلسفة يجب أن تكون مجهوداً لتجاوز الوضع الإنسانى.

وقد ركز العلماء أنظارهم عن رضى تام على التصورات التى نصبوها كعلامات على طريق الحدس. وكلما ازداد تناولهم لهذه البواقى التى استحالت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى شكل رموز، كلما أمعنوا فى إلحاق صفة رمزية بكل علم. وكلما ازداد إيمانهم بالصفة الرمزية للعلم ازداد تحقيقهم لها وقوى تعبيرهم عنها. وسرعان ما أغفلوا وضع فروق بصدد العلم الوضعى بين ماهو طبيعى وما هو صناعى، أى بين معطيات الحدس المباشر وعمل التحليل العريض الذى واصله العقل حول الحدس، فمهدوا بذلك الطرق لمذهب يؤكد نسبية معارفنا جميعاً. ولكن الميتافيزيقا أسهمت أيضاً فى ذلك.

فكيف إذن لم يكن لدى أساطين الفلسفة الحديثة ـ الذين كانوا فى نفس الوقت ميتافيزيقيين ومجددين للعلم ـ الشعور بالاستمرار المتحرك للواقع؟ كيف حدث أنهم لم يستقروا فيما نسميه «الديمومة الملموسة»؟ لقد فعلوا ذلك أكثر مما ظنوا، وعلى الأخص أكثر بكثير مما صرحوا به، فإذا ما نحن إجتهدنا لأن نربط بخطوط متصلة الحدوس التى انتظمت حولها النظم وجدنا إتجاهاً واضحاً جداً من الفكر والشعور،إلى جوار خطوط كثيرة أخرى متلاقية أو متفرقة. فما هو هذا الفكر الكامن؟ وكيف يمكن التعبير عن هذا الشعور؟ إذا استعرنا مرة أخرى من الأفلاطونيين لغتهم، وذلك مع تجريد الكلمات من معناها النفسى وبإطلاقنا لفظ «مثال» على نوع من التأكد من وجود معقولية سهلة المنال، ولفظ «نفس» على ضرب من القلق فى الحياة ـ سنقول إن تياراً خفياً يدفع الفلسفة الحديثة إلى أن ترفع النفس فوق «المثال» وهى تميل بذلك كالعلم الحديث، بل أكثر بكثير إلى أن تسير فى اتجاه عكسى لاتجاه الفكر القديم.

ولكن هذه الميتافيزيقا، مثل هذا العلم بسطت حول حياتها العميقة نسيجاً ثرياً من الرموز، ناسية أحياناً أنه إذا كان العلم فى حاجة إلى رموز فى نموه التحليلى، فإن السبب الرئيسى فى وجود الميتافيزيقا هو الابتعاد عن الرموز. هنا أيضاً واصل العقل عمله فى التثبيت،وإن كان ذلك فى الواقع على شكل يختلف اختلافاً محسوساً. ولنقتصر ـ دون إلحاح على نقطة ننوى معالجتها مفصلة فى موضع آخر ـ على القول بأن العقل الذى تنحصر مهمته فى معالجة أشياء ثابتة يمكنه البحث عن الثبات إما فى العلاقات وإما فى الأشياء. ومادام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يمارس عمله على تصورات للعلاقات فإنه ينتهى إلى الرمزية العلمية. ومن حيث يمارس عمله على تصورات الأشياء فإنه ينتهى إلى الرمزية الميتافيزيقية. ولكن الترتيب فى هذه الحالة أو تلك إنما يصدر عنه. وهو سيظن نفسه مستقلاً عن طيب خاطر. فهو بدلاً من الاعتراف فوراً بما يدين به الحدس العميق للواقع يعرض نفسه إلى ألا يرى فى عمله كله سوى تنظيم صناعى للرموز، بحيث أن المرء إذا ما توقف عند حرفية ما يقوله الميتافيزيقيون والعلماء، كما إذا ما توقف عند مادية مايصنعون، أمكنه الاعتقاد بأن الأولين حفروا تحت الواقع نفقاً عميقاً، وأن الآخرين مدوا فوقه جسراً أنيقاً، ولكن نهر الأشياء المتحرك يمر بين هذين العملين الفنيين دون أن يمسهما.

إن إحدى الوسائل المصطنعة الرئيسية فى النقد الكانتى ترجع إلى أنه قبل مباشرة قول الميتافيزيقى والعالم، وأنه دفع بالمتيافيزيقا والعلم إلى أقصى حد يمكن أن يصلا إليه من الرمزية، وهو الحد الذى يمكن لهما أن يذهبا إلى مداه، وهو من ناحية أخرى المدى الذى يتجهان إليه من تلقاء نفسيهما منذ اللحظة التى يطالب فيها العقل باستقلال مفعم بالمخاطر. فحالما يتجاهل كانت صلات العلم والميتافيزيقا، «بالحدس العقلى» فإنه لايجد مشقة فى أن يبين كيف أن عملنا نسبى تماماً وأن ميتافيزيقيتنا اصطناعية تماماً. ولما كان قد بالغ فى الكلام عن استقلال العقل فى كل من الحالتين وكما قد خفف الميتافيزيقا والعلم من «الحدس العقلى» الذى كان يثقلهما من الداخل لم يعد العلم يقدم له عن طريق علاقاته إلا قشرة من الشكل، ولم تعد تقدم له الميتافيزيقا بأشيائها إلا قشرة من المادة، فهل من الغريب ألا يبين له الأول حينئذ سوى إطارات متداخلة فى إطارات؛ وألا تبين له الثانية سوى أشباح تسعى خلف أشباح.

لقد أنزل بعلمنا وميتافيزيقانا ضربات بالغة الشدة حتى أنهما لم يفيقا إلى الآن من ذهولهما. فعقلنا مستعد لأن يسلم عن طيب خاطر بأن يرى فى العلم معرفة نسبية تماماً وفى الميتافيزيقا تأملاً فارغاً. وحتى اليوم يبدو لنا أن نقد كانت ينطبق على كل الميتافيزيقا وعلى كل العلم، وفى الواقع هو ينطبق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بوجه خاص على فلسفة القدماء كما ينطبق أيضاً على الصورة التى صاغ بها المحدثون تفكيرهم ـ فى أغلب الأحيان ـ وهى صورة لاتزال تحمل طابع القدماء. إن هذا النقد صالح أمام ميتافيزيقا تزعم أنها تقدم لنا نظاما واحداً وجاهزاً للأشياء وفى مواجهة علم يجعل من نفسه نظاماً واحداً للعلاقات، وأخيراً فى مواجهة علم وميتافيزيقا يتجليان بمظهر البساطة الهندسية المعمارية التى تتصف بها نظرية المثل الأفلاطونية أو التى يتصف بها معبد يونانى، فإذا ما زعمت الميتافيزيقا أنها تقوم على تركيب من التصورات التى سبق لنا الاستحواذ عليها، وإذا ما كانت عبارة عن تنظيم بارع لأفكار سابقة فى الوجود نستعملها استعمال مهمات البناء من أجل تشييد مبنى، وأخيراً إذا كانت شيئاً آخر غير التمدد المستمر لعقلنا والمجهود الذى لايزال يتجدد لتجاوز نطاق أفكارنا الحالية، وربما أيضاً لتجاوز منطقنا البسيط، فمن الجلى أتم الجلاء أنها ستصبح اصطناعية كجميع أعمال العقل الخالص. وإذا كان العلم فى كليته عملاً من أعمال التحليل والتصور العقلى، وإذا لم يكن دور التجربة فيه إلا التحقق من «أفكار واضحة»، وإذا كان بدلاً من أن يبدأ من حدوس عدة مختلفة تنفذ خلال الحركة الخاصة لكل حقيقة واقعية، ولكن دون أن تتداخل بعضها فى البعض الآخر دائماً ـ فإنه إذن يزعم لنفسه أنه رياضة بالغة السعة وأنه نظام وحيد من العلاقات يضم جملة الواقع فى شبكة معدة من قبل، فإنه سيصبح معرفة متعلقة تماماً بالعقل الإنسانى. لنقرأ مرة أخرى بإمعان «نقد العقل الخالص» فسنرى أن هذا النوع من الرياضة الكلية الذى يعتبره «كانت» العلم، وهذه الميتافيزيقا الأفلاطونية التى لم يكد يمسها تغيير هى فى نظره الميتافيزيقا. وحقيقة القول إن علم الرياضة العامة ليس هو نفسه سوى بقية من بقايا الأفلاطونية، فالرياضة العامة هى مايصير إليه عالم المثل عندما يفترض أن المثال يتكون من علاقة أو قانون لامن شئ من الأشياء. لقد أعتبر «كانت» هذا الحلم لبعض الفلاسفة المحدثين حقيقة، بل أكثر لقد اعتبر أن كل معرفة علية ليست سوى جزء انفصل عن الرياضة الكلية، أو بالأحرى نقطة انتظار على الطريق المؤدى إلى هذه الرياضة. وأصبحت حينئذ المهمة الرئيسية للنقد هى إقامة أساس هذه الرياضة أى تحديد ما يجب أن يكون عليه العقل وما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يجب أن يكون عليه الموضوع ليمكن لرياضة متصلة أن تربط أحدهما بالآخر. وإذا أتيح بالضرورة لكل تجربة ممكنة أن تدخل على هذا النحو فى الإطارات الصلبة التى سبق لعقلنا تكوينها فسبب ذلك الافتراض (إلا إذا افترضنا وجود انسجام أزلى) أن عقلنا ينظم هو نفسه الطبيعة ويجد نفسه فيها كما لو كان ينظر إليها فى مرآة. ومن هنا تنشأ إمكانية العلم الذى سترجع فاعليته إلى نسبيته وتنشأ أيضا إستحالة الميتافيزيقا، إذ أنها لن تجد من عمل سوى أن تقلد ـباستخدام أشباح الأشياءـ علم التنظيم التصورى الذى يتابعه العلم جديا حول علاقات، وبالاختصار **فإن كتاب "نقد العقل الخالص" بأكمله ينتهى إلى إثبات أن الأفلاطونية، وهى غير مشروعة ـ إذا كانت المثل أشياء ـ ستصبح مشروعة إذا كانت المثل علاقات، وأن المثال المعد من قبل إذا ما أنزل على هذا النحو من السماء إلى الأرض هو بالفعل ـ كما أراد أفلاطون ـ الأساس المشترك للفكر والطبيعة. ولكن كتاب "نقد العقل الخالص" بأسره يستند أيضاً إلى هذه المسألة القائلة بأن تفكيرنا عاجز عن أى شئ غير التفكير تفكيراً أفلاطونياً، أى أن يصب كل تجربة ممكنة فى قوالب سابقة الوجود.**

وهنا تكمن المشكلة بأكملها. فإذا ما كانت المعرفة العلمية على ما أراد لها كانت أن تكونه حقاً، فإن هناك علماً بسيطاً سبق تشكيله بل سبقت صياغته فى الطبيعة كما كان يعتقد أرسطو: وإن الاكتشافات العظيمة وهى تكشف عن هذا المنطق الحال فى الأشياء لادور لها سوى أن تضئ نقطة تلو الأخرى على الخط المرسوم من قبل، كما يشغل الناس بالتدريج أمسية عيد صف مصابيح الغاز التى سبق وضعها على أثر من الآثار لكى ترسم حدوده. ومن ناحية أخرى إذا كانت المعرفة الميتافيزيقية هى فعلاً ما أراد لها كانت أن تكون، فإنها ستنتهى إلى الإمكان المتساوى لموقفين متعارضين للذهن فى مواجهة جميع المشكلات الكبرى، وتُكوِّن مظاهر هذه المعرفة كثرة ضروب الاختيار المتعسفة ـ والتى لاتلبث أن تتبدل باستمرار بين حلين تمت صياغتهما بطريقة ضمنية منذ الأزل ـ وهى تحيا وتنقضى بسبب المناقضات، ولكن الحقيقة هى أن علم المحدثين لايقدم لنا هذه البساطة السائرة فى خط واحد، وكذلك لاتقدم لنا ميتافيزيقا المحدثين هذه المعارضات التى لايمكن حلها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالعلم الحديث ليس واحداً ولا بسيطاً. إننى أوافق على أنه يقوم على أساس من الأفكار التى يتفق الناس على وضوحها،ولكن هذه الأفكار عندما تكون عميقة إنما يأتيها هذا الوضوح تدريجياً عن طريق استعمال الناس لها، وهى تدين حينئذ بأوفر نصيب من إشراقها إلى الضوء الذى ردته إليها -بطريق الإنعكاس-الوقائع والتطبيقات التى أدت إليها، إذ أن وضوح التصور ليس فى حقيقته شيئا آخر سوى الإطمئنان الناجم عن استعماله استعمالاً مجدياً. وفى الأصل لابد أن أكثر من فكرة من هذه الأفكار بدت غامضة يصعب التوفيق بينها وبين التصورات التى سبق أن قبلها العلم، فلا تكاد تفلت من صفة البطلان. ومعنى هذا أن العلم لايسلك فى عمله مسلك التداخل المنتظم للتصورات التى تكون قد أعدت مقدماً لأن يتداخل بعضها فى البعض الآخر بدقة. إن الأفكار العميقة والخصبة تمثل عدداً كبيراً من نقط التماس بتيارات من الواقع لاتتلاقى بالضرورة فى نقطة واحدة بالذات. والحق أن التصورات التى تستقر فيها هذه الأفكار تستطيع دائما بالتخفيف من حدة زواياها عن طريق الإحتكاك المتبادل أن تنتظم فيما بينها بطريقة متفاوتة.

ومن ناحية أخرى، فإن ميتافيزيقا المحدثين لاتنطوى على حلول تبلغ درجة من الحسم إلى الحد الذى يمكنها معه أن تنتهى إلى معارضات لايمكن التوفيق بينها. والأمر يكون هكذا بدون شك إذا لم تكن ثمة أى وسيلة لقبول الموقف ونقيضه فى المناقضات فى نفس الوقت وفى نفس المجال. ولكن التفلسف هو على وجه التحديد الاستقرار بمجهود من الحدس داخل هذه الحقيقة الملموسة التى يأتى النقد الكانتى ويلتقط لها من الخارج وجهتى النظر المتعارضتين أى الموقف ونقيضه.

إننى لن أتخيل مطلقاً كيف يتداخل اللون الأبيض مع اللون الأسود، إذا لم أكن قد رأيت اللون الرمادى من قبل. ولكننى حالما أشاهد اللون الرمادى سأفهم بدون مشقة، كيف يمكن تصور تكوينه من التقاء اللونين الابيض والأسود معاً. إن المذاهب التى تقوم على أساس من الحدس تفلت من النقد الكانتى، تماماً بقدر ما تنطوى عليه من حدسية، وهذه المذاهب هى الميتافيزيقا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأكملها، بشرط ألا تتناول الميتافيزيقا التى جمدت وأصابها الموت فى غمار الدعاوى والحجج، بل نتناولها كمواقف حية لدى الفلاسفة.

ومن المؤكد، أن الخلافات بين المدارس تبدو فى صورة مثيرة للإنتباه، وأعنى بها على وجه الإجمال، ما كان يقع من خلافات بين جماعات التلامذة الذين كانوا يلتفون حول كبار الأساتذة. ولكننا نتساءل عمّا إذا كانت هذه الخلافات تحدث بين الأساتذة أنفسهم، على هذا النحو من التعارض الحاسم؟ إن أمراً ما يتحكم هنا فيما بين المدارس من خلافات، ونحن نكرر القول بأنه شئ بسيط وواضح، مثله كمثل دفعة مسبار إلى الأعماق، نشعر بأنها هبطت به فلمس قاع نفس المحيط فى أعماق متفاوتة، وإن كان يجلب إلى السطح ـ فى كل مرة ـ مواداً مختلفة تمام الاختلاف، وهذه المواد هى التى يمارس التلامذة عملهم عليها عادة: وهنا نجد دور التحليل. والأستاذ مادام يصوغ ما يأتى به، ويبسطه، ويترجمه إلى أفكار مجردة، يعتبر على نحو ما متتلمذاً على نفسه. ولكن الفعل البسيط الذى دفع بالتحليل إلى الحركة والذى يختفى وراء التحليل إنما يصدر عن قوة تختلف تمام الإختلاف عن قوة التحليل، ستكون من حيث تعريفها نفسه هى الحدس.

فلنختتم هذا البحث بقولنا إن هذه القوة لاتنطوى على أى شئ خفى. فكل من مارس التأليف الأدبى بنجاح يعرف تمام المعرفة، أنه بعد أن يدرس الموضوع دراسة طويلة ويجمع الوثائق الخاصة به ويسجل جميع الملاحظات يلزم بعد ذلك البدء فى عمل التأليف نفسه لتوفير شئ أكثر من هذا، وهو مجهود كثيراً ما يكون شاقاً من أجل الاستقرار دفعة واحدة فى صميم الموضوع، ولكى نبحث بأكثر ما يمكن من العمق عن قوة دفع، نجد أنه ليس ثمة مفر من الإستجابة لها والانسياق معها. إن قوة الدفع هذه بعد أن يتلقاها العقل تقذف به فى طريق يعود فيعثر فيه مرة أخرى على المعلومات التى سبق له أن جمعها وعن تفصيلات جديدة أخرى. إنها تنمو وتحلل نفسها بنفسها إلى ألفاظ قد يستمر تعدادها إلى مالا نهاية. فكلما سار المرء قدماً كلما زاد ما يكتشفه منها، ولن يتوصل المرء قط لأن يقول كل شئ بصدد الموضوع،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكنه إذا ما تحول فجأة إلى قوة الدفع التى يشعر بها وراءه لكى يمسك بها يرى أنها تفلت منه، ذلك لأنها ليست شيئاً ملموساً،بل مجرد حث على الحركة، وهى على الرغم من قبولها للإمتداد بلا تعيين إلا أنها البساطة بعينها. وليس الحدس الميتافيزيقى سوى شئ من نفس النوع. والذى يقابل هنا الملاحظات والوثائق فى التأليف الأدبى هو مجموع الملاحظات والتجارب التى يجمعها العقل عن العقل، ذلك أن المرء لايحصل من الواقع على حدس أى على تعاطف روحى مع أعمق أغوار نفسه إذا لم يكتسب ثقتها، بصحبة طويلة لمظاهرها السطحية. ولايقتصر الأمر على أن يتمثل المرء الوقائع البارزة فحسب، بل يجب أيضاً تجميع كتلة كبيرة منها بحيث يضمن فى هذا الصهر استبعاد تأثير الأفكار السابقة والأفكار غير الناضجة بعضها بواسطة بعض، تلك الأفكار التى استطاع الملاحظون أن يودعوها على غير شعور منهم داخل ملاحظاتهم. وهكذا فقط تنجاب المادية الساذجة المتعلقة بالوقائع المعروفة. وحتى فى الحالة البسيطة الممتازة التى استخدمناها مثالاً، وحتى فى التماس المباشر للأنا «بالأنا» سيكون المجهود النهائى للحدس الواضح مستحيلاً على من لم يجمع عدداً كبيراً من التحليلات النفسية،ويقابل بينها. لقد كان أساطين الفلسفة الحديثة رجالاً استوعبوا مادة العلم فى عصرهم بأسرها. ويرجع سبب النكسة الجزئية للميتافيزيقا منذ نصف قرن بصفة خاصة إلى مايشعر به الفيلسوف اليوم إزاء مايعترضه من صعاب بالغة حينما يحاول أن يوثق صلته بالعلم الذى ازداد زيادة شديدة فى تشعبه. ولكن الحدس الميتافيزيقى، على الرغم من أنه لايمكن الوصول إليه إلا بالكثير من المعارف المادية، هو شئ يختلف اختلافاً تاماً عن تلخيص معارفنا أو تركيبها. فهو يتميز عنها، كما تتميز الدفعة المحركة عن الطريق الذى قطعه الشئ المتحرك، وكما يختلف توتر الزمبرك عن الحركات الظاهرة فى رقاص الساعة. وبهذا المعنى ليس ثمة ماهو مشترك بين الميتافيزيقا وتعميم التجربة. ومع ذلك فإنها يمكن أن تعرف بالتجربة المتكاملة.